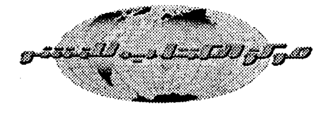
الإنسان

السيد العبد

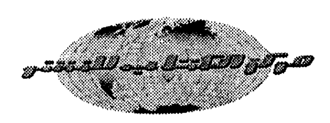
دكتور

محمد الجزار

٢٠٠٤م



الطبعة الأولى
٢٠٠٤م



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس- المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

http://www.top25books.net/bookcp.asp.
E-mail:bookcp@menanet.net


إهـــداء
إلى من أراد استعبادى
ففجر فى داخلى براكين الغضب
د. محمد الجزار

محتويات الكتاب

مقدمة ٧

الفصل الأول : السيادة والعبودية - السيد والعبد ١١

الفصل الثانى : العبودية على مر العصور ٣٥

- العبودية فى العصور القديمة ٣٥
- العبودية فى العصور الوسطى ٥٠
- العبودية فى العصور الحديثة ٥٣

الفصل الثالث : فلسفة القوة ٦٣

الفصل الرابع : سيكولوچية العدوان والخنوع ٨٥

الفصل الخامس : السيد العبد ١١١

- الاستبداد والطغيان ١٢٠
- النفعية والوصولية ١٢٥
- التفاوض والتوافق ١٣١
- النظام العالمى الجديد ١٣٩

خاتمة ١٥٧

قائمة المراجع ١٦٣

مقدمة

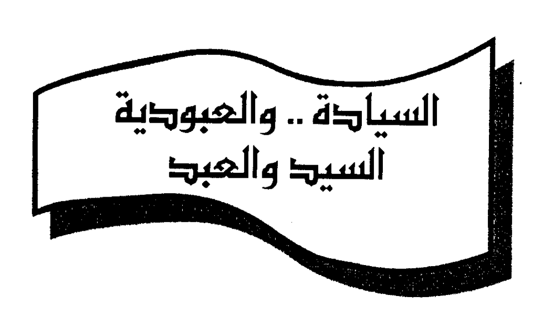
نظام كونى شامل ، يحتل فيه نظام فرعى بشرى جزء صغير جداً، ينبع من النظام الفرعى أنظمة أخرى كثيرة قائمة على الاختلاف والتباين والتضاد ، وجد النظام الطبقى (Stratification) مع وجود الإنسان الأول عندما فطن إلى الاختلاف فى الذكاء والقوة الجسدية، ثم عندما تملك وظهر الاختلاف فى قيمة الثروة المملوكة، وأخيراً عندما اكتشف السلاح وطوره واستخدمه فى القتل وفى الدمار.

بالرغم من أن كل إنسان كائن بذاته ، له شخصية مميزة، فإنه يوجد صفات عامة لجميع البشر منها غرائز فطرية كائنة فى جيناته ، وكذلك مراحل تطوره بداية من الميلاد وحتى النهاية عند الممات. ينبع عدم الدقة فى التحليل والتنبؤ بسلوك الإنسان ومعرفة ما يجب عمله أو ما ينبغى ألا يعمله من تحليل الشخصية بمنظور المحلل الذى تكوّن من ميراث جينات وتراكمات تجارب مكتسبة من بيئة خاصة بالفرد. لقد ورث الإنسان من أسلافه غرائز تختلف شدتها من شخص لآخر، كما ورث ميعاد ميلاده الذى تأثر بالموجات الكهرومغناطيسية التى تنتشر فى الكون، ثم اكتسب قيم ومبادئ وثقافة نابعة عن مجتمعه ، فى الأسرة والمدرسة والأقارب والأصدقاء ، أى من البيئة المحيطة به بصفة عامة، كما أثر المكان الذى يعيش فيه الفرد فى تكوين شخصيته وبلورة مبادؤه وأفكاره. فالطفل منذ الصغر يتعلم بالتدريج القيم والمبادئ ممن حوله، ويحاول بالتبعية أن يتصرف فى الكبر وفقاً لتفاعل ما تعلمه مع موروثاته الفطرية، وكذلك وفقاً لوضعه الاجتماعى والاقتصادى والصحى.

من المستحيل أن تتطابق موروثات ومكتسبات التجارب لشخصين، وعلى ذلك يكون من المستحيل أن يكون الحكم صحيحاً ومطلقاً على سلوك إنسان من وجهة نظر إنسان آخر. فوجود الاختلاف والتضاد ظاهرة طبيعية فى هذا الكون، وأيضاً يعتبر وجود السيد والمسود ظاهرة طبيعية إذا نظرنا إلى هذا الأمر من منظور مجرد ومحايد.

ألغى الرق وانتهى الاستعباد ولو ظاهرياً وأصبح الإنسان حراً يملك زمام نفسه، وكاد يتلاشى وجود السيد الارستقراطى ذى الأخلاق النبيلة، وانتهى المطاف بسيطرة السيد العبد الذى يحمل كل من صفات السيد والعبد، هذا الإنسان العدوانى الذى قد يدمر ذاته ويدمر من حوله، وقد يتراجع ويستسلم إذا وجد مصيره إلى الفناء، يتأرجح الإنسان الحديث بين طبيعة السيد وطبيعة العبد، يحمل صفات كل منهما، يساوم ويفاوض فى حضارة مادية تحكمها تكتلات اقتصادية ترغم الإنسان أن يداهن ويساير حتى ينال نصيبه من حياة الرفاهية التى يعيشها حلماً من خلال وسائل الإعلام، لقد تحول العالم إلى قرية صغيرة متعددة الحضارات والثقافات، وتضاءل حجم الإنسان وفكره الفردى وسط مؤسسات عملاقة متعددة تعمل فى جميع مجالات الحياة.

حاول الفلاسفة والباحثين فى علوم السياسية والاقتصاد، والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلوم الهندسة الوراثية والجينات، وعلوم أخرى مختلفة التنبؤ بصفات إنسان المستقبل، الأكثرية تبحث وتحلل من المنظور الخاص بها، وليس من المنظور العلوى المجرد، وتكون لدى كل محلل شكل خاص بالإنسان الحديث وإنسان المستقبل، ما هو سلوكه وعلاقاته مع الآخرين، ما هو الشكل السياسى والاقتصادى العام الذى بدأ أن يتبلور مع بداية الألفية الثالثة للمجتمع العالمى الجديد، أسئلة كثيرة حاول كل محلل الإجابة عنها، وتصور بعض السيناريوهات لها، ونحن هنا نحاول أيضاً ، عسى أن يصيبنا شيء من فراسة التوقع واحتمال ممكن حدوثه.


السيادة .. والعبودية
السيد والعبد

السيادة والعبودية .. السيد والعبد

اعتمد الإنسان الأول فى إشباع احتياجه من الطعام بالصيد فى جميع البيئات التى عاش فيها أو بجوارها فى ذلك الوقت من غابات ، وصحراء، وأنهار، وبحار، أو بيئة ثلجية، كان الصيد هو مركز الحياة، يسد من خلاله الإنسان جوعه، ويدثر نفسه فى فراء فرائسه ، ويستخدم العظام فى صنع أدواته الأولية. بدأ الإنسان فى استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن عندما ساق صغار الحيوانات الضعيفة إلى مغارته أو منزله البدائى ليتخذها الأطفال لعباً، وتركت لفترة من الزمن حتى تكبر ويذبحها، عندما كثرت أعداد الحيوانات الصغيرة المستأنسة وتكون القطيع من عمليات التناسل تعلم الإنسان الرعى، ثم فكر فى استعمال الحيوان فى النقل، يحمل الإنسان ويحمل مهماته.

عندما انشغل الرجل فى الصيد، كانت المرأة تبحث عن نباتات فوق سطح الأرض، ومن درنات مدفونة، وجمعت المرأة الثمار والحبوب، واحتفظت بها لفترة من الزمن، عندما لاحظ الإنسان أن بعض البذور أو الحبوب التى تركت أو سقطت سهواً قد أنبتت تبين له أنه بالإمكان استنبات هذه البذور أو الحبوب بتركها تحت سطح الأرض أو فوقها مع إمدادها بالماء. كان اكتشاف الزراعة هو بداية استقرار إنسان الصيد، وبداية المدنية بشكلها الأولى، ومنها مارس الإنسان غريزة التملك من خلال أصول ثابتة وهى الأرض. إن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الأفراد أدى إلى استخدام الضعفاء بواسطة الأقوياء، أن العناية بالأرض تتطلب عمل متواصل ومجهود كبير، لم يستطع الإنسان القوى وحده أو مع أسرته أن يقوم به، كما أن طبيعة الإنسان القوى ذو الغريزة العدوانية تميل إلى الصيد أكثر من الزراعة. حدث النزاع منذ بدأ الخليقة ، وتعارك الإنسان مع قرينه ، تنبه المنتصر فى القتال أن الأسير الحى هو الأنفع والأجدى، وبذلك قلت المجازر البشرية ، وبدأ نظام جديد من الرق والاستعباد ، الذى اتسع عندما أضيف إلى أسرى الحروب، المدنيون الذين لا يوفون الدين، والمجرمون معتادى الإجرام.

منذ ذلك الزمن نشأت السيادة والعبودية، ووجد السيد والعبد فكل منهما مكمل للآخر، وعلى مر التاريخ تغير شكل السيادة والعبودية، كما تغيرت صور السيد والعبد، أخذت السيادة شكل القبيلة، أو الأمبراطورية، أو الملكية، أو الدولة، وأخذت العبودية شكل الاسترقاق، والاستبداد والاستعباد. كما أخذ السيد صورة رئيس القبيلة ، أو الأمبراطور ، أو الملك، أو الأمير، أو الطاغية، أو الحاكم.. وأخذ العبد صورة الرقيق، أو الأسير، أو الأجير، أو الخادم .. إلخ.. تعددت الأسماء، والأشكال، والصور، والصفات، ولكن ما زال النظام كما هو يرتع فى نظامنا البشرى.

الإنسان السيد ، ذلك الارستقراطى، الفارس النبيل الذى يتسيد على نفسه كما يتسيد على الآخرين، هو الذى يتحكم فى شهواته ونزواته عندما يريد ذلك، هو من يقود التناغم ما بين متطلبات الروح والعقل والجسد. الروح تصبو إلى التواصل مع الله الخالق القادر، وتقودنا الروح إلى مكارم الأخلاق والفلسفة المجردة، أما العقل المستنير فيزن الأمور بميزان المنطق والاستدلال، الجسد أيضاً له متطلبات من احتياجات وشهوات لا نستطيع أن نتغاضى عنها، التناسق والتناغم مطلوب لأجل أن نكون راضين عن أنفسنا ويرضى الآخرين عنا، متناقضات وجدت فى هذا الكون، مطلوب منا أن نتماشى معها.

السيد الحق هو الذى يقود ويصارع فى سبيل المثل المجردة من النزوات والشهوات، فالحق بيّن والباطل أيضاً بيّن . يجب أن نعيش فى خطر كما قال الفيلسوف الألمانى نيتشه، فى صراع دائم، فالصراع ينمى العقل ويكبح جماح النزوات، الصراع يجعلنا نشعر بذاتنا وتفوقنا على الآخرين، ففى الانتصار نشعر بنشوة الفوز وفى الفشل نعيد ترتيب أوضاعنا وشحن قدراتنا التى وهبها الله فينا وهى قدرات هائلة لو عرفنا قدرها، فى الفشل نشحذ همتنا ونقوى صبرنا واحتمالنا لمعاودة الصراع والنزال، الحاجة تولد الابتكار والاختراع، وألم الهزيمة يولد القوة والإرادة إذا لم نلق بالاً إلى الإحباط واليأس، الحياة صراع دائم ومجابهة مستمرة، مع الذات ومع الطبيعة ومع الآخرين.

السيد هو من يخوض المخاطر ويجابه الأهوال فى سبيل ما يؤمن به من قيم وضعتها روحه الارستقراطية وقادها عقل ذكى له من الخبرات والتجارب المتراكمة عبر سنوات عمره ما يمكنه أن يناور بها فى الهجوم، وأن يخترع ويبتكر ما يمكن أن ينتصر به، السيد هو الإنسان ذو الثقافة العالية الذى يمكنه أن يميز بين الحق والباطل، بين الخير والشر، الذى يعيش حياته بصراحة وبدون التواء أو تزيين أو تزييف، لا يخادع ولا ينافق، السيد هو الإنسان الملم بالعلوم والفلسفات والقيم الروحية والدينية، ذات الهمة المتدفقة الفياضة التى لا تنضب، تواصل الصراع والعيش فى المخاطر حتى الموت، حتى الموت لا يهابه ما دام هو حقيقة ثابتة وواقع محتوم، يعيش حياته بلا خوف ، يموت وهو راض بما فعله خلال مسيرته محدودة الزمان.

وجد الصراع الغريزى منذ بدأ الخليقة الإنسانية، منذ لمس الإنسان التفوق النسبى فى الذكاء وفى القوة الجسدية بينه وبين أقرانه، وظهر الأسر كمحصلة طبيعية لتغلب فرد على آخر أو تغلب مجموعة على أخرى. كان الغالب فى وضع يسمح له بقتل الأسير أو استخدامه. تنازل المهزوم عن حريته للإفلات من موت محتوم ورضى بالعمل لدى الغالب مقابل الحد الأدنى للمعيشة وأصبح الأسير عبداً لسيد قد يضعه القدر فى نفس الموقف.

أما العبودية فتعرف بكونها عرف اجتماعى يتخذ الشكل الجبرى اللاإرادى للاستخدام الإنسانى، ويعتبر العبد ملكية خالصة للسيد أو المالك الذى يستطيع إرغامه على العمل، أو بيعه، أو رهنه، أو التنازل عنه ، أو إهدائه بدون أى اعتراض من العبد أو من أى فرد آخر. فيعتبر العبد ككيان خاضع لمشيئة المالك، حتى حياته كانت تعتبر فى بعض الأحيان ملكاً للسيد المالك.

تطورت العبودية وسادت فى العصور القديمة والعصور الوسطى، ومع التقدم الزمنى والتطور الحضارى اكتشف الإنسان أشكال مختلفة للطاقة غير الطاقة الجسدية فى الوقود الأحفورى مثل الفحم والبترول أو فى الطاقة الكهربية، وقد ظن بعض الفلاسفة أن اختراع الآلات سيبيح إلغاء الرق، ولكن تغير الشكل وتبقى مضمون

العبودية كما هو ، وبدل أن يكون الإنسان عبداً لإنسان آخر فقط، أصبح عبداً للآلة ولمؤسسات صناعية ومالية وتجارية عملاقة، كان العبد قديماً يقيم مادياً حسب جنسه وسنه وقدرته، فالأنثى تعمل خادمة فى المنزل أو تعمل كوصيفة لصاحبة المنزل أو قد تعمل فى البغاء، والذكر يعمل فى الزراعة أو الصناعة أو خادم مطيع لسيده، أصبح الحفاظ على العبد كالحفاظ على الأملاك مثل الماشية أو العقار أو الأرض، وانتشرت تجارة الرق لما لها من عائد اقتصادى يدر على السيد مالاً أو ينهل منها لذة. لقد تحول الإنسان إلى حيوان بشرى يقوم بتربيته وتهذيبه وتهجينه من له حق الملكية الذى كان يشجع تخصيب النساء حتى يزيد من رأس ماله، وقد وصل الحال أن الأغريق اعتبروا أن عملية التخصيب وتربية العبيد أكثر نفعاً وجدوى من تربية الماشية، وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الرق الأسود من زنوج أفريقيا مباحاً فى الأمريكتين خاصة فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية وفى البرازيل نظراً لحاجة هذه الولايات الزراعية إلى الأيدى العاملة فى زراعة القطن فى الولايات المتحدة أو زراعة القصب فى البرازيل.

ما أجمل السرارى والوصيفات فى قصور الملوك والأمراء، خصوصاً الجنس الأشقر ذوات الشعور الذهبية والعيون الزرقاء أو الخضراء، لقد امتلأت هذه القصور بكل أنواع العبيد من صبايا وصبيان، وانتشر البغاء كما انتشر اللواط، وأصبح العبد مادة للحصول على اللذة ومتعة تسر الأعين، وتسرى فى وقت الفراغ، وهى أيضاً وسيلة لتحسين النسل الشرق أوسطى فى الماضى وحتى وقتنا هذا وإن تغيرت الأسماء والمسميات. مازالت العبودية موجودة تحت أسماء مثل الوصيفة أو مديرة المنزل أو مضيفة أو سكرتيرة أعمال. لم يقتصر الرق الجنسى على بلاد الشرق الأوسط ولكنه كان يوجد حتى وقت قصير فى ظل النظم الاشتراكية فى بلاد أوروبا الشرقية نظراً لانخفاض مستوى المعيشة مقارنة بجيرانهم فى أوروبا الغربية. وفى الصين كان الأباء يتخلون عن بناتهم الصغيرات فى فترات المجاعة وبالطبع كانوا يعملون فى الدعارة تحت إشراف سيد قوى بدهائه وعديم أخلاقه، كما وجدت الدعارة أيضاً فى معظم الدول الفقيرة من جنوب شرق آسيا، ولم تخلُ اليابان من

هذا النوع من الأعمال إلا أنها كانت مغلفة ببعض الفنون مثل الغناء والعزف على الآلات الموسيقية فكانت فتاة الجيشا تعمل لإسعاد السيد الغنى، تطربه وتفتنه.

هل استكن العبد طوال فترات استعباده ورضى بحالة العبودية التى قاسى منها طويلاً، حدثنا التاريخ عن ثورات العبيد على مر الزمان، لقد ثار العبيد بقيادة أونوس فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد، ثم جاءت ثورة العبيد المشهورة بقيادة سبارتكوس الذى كون جيشاً من حوالى سبعين ألف من العبيد وهزم الجيش الرومانى فى معارك كثيرة حتى انتهى به الأمر بأن هزم وأعدم فى معركة بريندس.. أما الثورات الفردية للعبيد فكانت غالباً ثورات سلبية عن طريق الفرار من نير سيده، فكان العبد إذا تم إمساكه يعذب أو يعدم.

كتب آدم سميث فى كتاب «ثروة الأمم» : (أن العامل الحر متفوق على العبد لأن الإكراه لا يجعل الإنسان مبتكراً ، متحمساً وذكياً) ، وأرجع سميث غلاء المنتجات إلى استخدام العبيد فى العمل.. حتى نظرة آدم سميث إلى العبودية لم تكن إنسانية بل نظرة مادية تؤدى إلى معاناة السيد من الغلاء.. فلم يكن السيد أبداً ولن يكون رحيماً لأن طبيعة السيد المالك دائماً بلا رحمة أو شفقة حتى إن وجدت الرحمة فلأجل الحفاظ على القيمة المادية للعبد، ومن أجل كسب شهرة زائفة من الرحمة والأخلاق.

لقد استعمر الغرب البلاد العربية والأسيوية والأفريقية وعاملهم كالعبيد، وغزا العرب البلاد الأفرنجية والزنجية وجلب الكثير من العبيد، واستخدم الإقطاعى الصينى أو اليابانى أو الهندى العبيد فى العمل أو فى المتعة، لم يكن الاستعباد مقصوراً على عرق بشرى أو بلد معينة أو جنس دون جنس آخر، إن السيد والعبد وجدا فى كل مكان وفى كل زمان، بالغريزة الموروثة وبالقدر الذى فرض التفاوت والتباين بين أفراد البشر، لن ينتهى مسلسل الرق والعبودية ولن ينتهى وجود السيد والعبد لأنه جزء من نظام كونى أبدى، قد يختلف الشكل وتختلف المسميات ولكن: الاستعباد - الاستبداد - الطغيان - الاستغلال - الاستغفال - الإخضاع- الإذلال -

الإجبار - . . . إلخ، وأشكال أخرى من صور ظلم الإنسان ستظل موجودة فى ظل نظامنا الكونى القائم على الاختلاف ، والتباين، والتفاوت ، والتضاد، وفى ظل غرائز كامنة داخلنا من حب البقاء والسيطرة وانفعالات نعيش بها من خوف وغضب تؤدى إلى عدوان واستسلام:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابـــد لليل أن ينجلى ولابد للقيد أن ينكسر

بالفعل إذا أراد شعب الحرية والديمقراطية فسوف يثور ضد قوى الطغيان والاستبداد ولكنه سيدفع مقابل هذه الثورة غالياً من إزهاق روح أو جرح أو فقد لقمة العيش، وهنا تظهر الفردية الذاتية عند حساب كل فرد: ماذا سيفقده هو إذا فشل الكفاح وانطفئت نار الثورة وماذا سيجنيه المجموع عند النجاح، أى أن السؤال مختصراً: لماذا أضحى فى سبيل المجموع؟

إذا كانت قوة الإرادة تتمثل فى الطاقة الحيوية التى تدفع الإنسان للتمرد والكفاح بغرض الوصول إلى أسمى هدف يسعى إليه الإنسان وهو :(حريته) ، فإن الأنانية الفردية تحرم المجموع - فى كثير من الأحيان - من نيل الحرية أولاً، ثم إثبات الذات والتقدير الشخصى والجماعى بعد ذلك.

المخاطرة بأغلى شىء لدى الإنسان الطبيعى هى ثمن الحرية كما قال الفيلسوف الألمانى هيجل : (ليس بالوسع نيل الحرية إلا بالمخاطرة بالحياة - والفرد الذى لا يخاطر بحياته قد يتم الاعتراف به كفرد غير أنه لن ينال الاعتراف باعتباره وعياً مستقلاً بذاته).

ليس الكثير منا من يستطيع دفع هذا الثمن فطالما تواجد الضعيف فى نظامنا الكونى فالقوى بالطبيعة سيتواجد أيضاً حتى يحدث توازن فى هذا النظام المبنى على التوازن. يوجد الكثير من ينشد الحرية ويتطلع إلى الديمقراطية ، ويريد أن يعبر عن

أرائه وما يجيش فى صدره، ولكن هل يستطيع هذا الكثير التنفيس أم يكبت ما فى داخله فيحدث الانفجار الداخلى الذى غالباً ما ينتج عنه الأمراض العضوية أو الأمراض العقلية أو الاثنين معاً. إذا ثار الفرد فى المجتمع الديكتاتورى سيوضع أما فى السجن أو فى مصحة عقلية ، وإذا كتم أحاسيسه ومشاعره سيصل به الحال أما إلى الجنون أو إلى أمراض الضغط والقلب فى أحسن الأحوال.

لم يستسلم الإنسان إلى اليأس وابتدع نظام العلاج النفسى الكائن بالغريزة داخل الإنسان، الإيحاء بالرضا والقناعة، وتطورت العلوم النفسية والاجتماعية مع تطور العلم الحديث، واكتشف الإنسان الأدوية المهدئة والمنومة واستفاد القوى مادياً من علاج الضعيف وبيع الأدوية له كما استفاد من منع ثورته التى قد تكلفه الكثير إذا زادت الشرارة واندلعت النيران. واكتشف الإنسان الضعيف سلاح سلبى آخر وهو السخرية من السيد الديكتاتور وتمادى فى السخرية لتشمل حتى ذاته وأصبحت الفكاهة (والنكتة) دواء آخر رخيص وسهل التداول.

إذا تأملنا النظام الحضارى الحديث سنتبين أنه بدلاً أن يكون الإنسان عبداً لإنسان آخر أصبح عبداً للآلة، يصونها ويطورها حتى لا يفقد رزقه كما أصبح عبداً لصاحب الآلة، يعمل الفرد فى نظام أكبر من قدرته الفردية، نظام مركب قام بتنفيذه وتطويره مئات أو آلاف من العلماء والاقتصاديين، يعمل فى مؤسسات مالية وصناعية عملاقة متعددة الجنسيات، يشعر بضآلته أمام الوحش الشرس الجديد فالإنسان ما زال عبداً حتى وإن تطور وتقدم.

قال نيتشه :«فى أثناء رحلاتى التى قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة أو الوضعية التى سادت العالم، والتى لا زالت تسوده حتى اليوم، لاحظت وجود عدة صفات معينة بدت مقرونة بعضها ببعض، وظهرت دائماً فى وقت واحد، حتى ان استطعت أن اكتشف وجود نوعين رئيسيين من الأخلاق مختلفين اختلافاً جوهريا، فهناك أخلاق للسادة وأخرى للعبيد، وذلك لأن تحديد القيم الأخلاقية قام بها إما جنس السادة المسيطرين الشاعرين شعوراً كاملاً والفخورين بوجود مسافة طويلة تفصل بينهم وبين الجنس المسود المغلوب. أو قام بهذا التحديد جماعة الأتباع والرعية

والعبيد المنحطين من كل الأنواع». لقد عرف نيتشه الأرستقراطى بأنه المحب للغزو، المعتز بقوته، القاسى على نفسه وعلى الآخرين، الذى يحتقر الرحمة ويشمئز من الضعف، الذى يبغض الكذب والنفاق والتملق ، لا يتسامح ولا يعرف أنصاف الحلول أو المساومة والمداهنة، ولكنه فى نفس الوقت قد يعفو عن الآخرين، ليس لأنه يميل إلى العطف ولكن لأنه يحب أن يظهر بمظهر القادر الذى يحسن إلى الآخرين، هذا الارستقراطى هو الذى لا يرضى بالعفو من الآخرين لأنه بقوته يأخذ كل شىء، لا أن يتفضل عليه الآخرون. . أنه لا يهتم بنعيم الحياة ورفاهيتها، ولا يحب أن يعيش فى سلام ، إنما يجد ذاته وسعادته فى الانتصار وفى القوة، يشعر بسرور عميق عندما يقابل الشر بمثله أو أضعافه.

فى الطرف الآخر يوجد العبد، هذا الذى يسمى مجازا بالإنسان، خنوع ومستسلم، متخاذل ومنهزم، جبان يهرب من أى قتال أو حتى أى صدام بسيط، يصبو إلى السلام، مطيع لمن أعلى منه، وكل الناس أعلى منه، لا يوجد دونه شىء فهو دائما فى قاع درجات السلم، لا يوجد لديه طموح، متواكل ضعيف. لقد وضع العبد قيما خاصة به ، قيما تمتلىء بالرحمة والسلام، الحب والأمان، التعاطف والإحسان، فهو دائماً يمد يده إلى الغير ينتظر نفايات الأسياد يقبل عليها بسعادة وانبساط، يتقبلها بشكر وامتنان. . هذا العبد هو الذى يصبر على استعباده وذله، ويسمى عجزه وخموله تواضعاً وقناعة . . كما تغيرت القيم من السيد إلى العبد تغيرت أيضاً المعايير، فالعبد لا يستطيع أن يزن بنفس ميزان السيد، فرؤيته محدودة وماديته متواضعة وإمكانياته لا تسمح إلا بالقليل فهى لا تتعدى الاحتياجات الأولية للمعيشة، فتغير صنف طعامه أو ارتداء لبس جديد هو قمة أمله ومصدر سعادته ، يقضى وقت فراغه فى النميمة والسباب، حديثه تافه وسخيف، ثقافته أساطير وخرافات، اللؤم لديه حيطة وذكاء، الغدر طبعه والكذب أسلوبه، سلس القيادة بالعصا، نمرود إذا تمكن، خسيس مع أقرانه ، مطيع لأسياده، يخاف من السيد ويحقد عليه حقداً كامناً دفيناً، حقداً ينتظر الفرصة للانتقام ، رد فعله دائماً سكون واستسلام ناتج من العجز والضعف، يجتر ألم العبودية كل حين فتزيد قوة الحقد

داخله، هذه القوة التى لا تجد تنفيث خارجى تسبب وضاعة وخسة أخلاق العبد من لؤم وسرقة ومكائد . . هذا العبد الذى يتقبل الإهانة والإساءة بوجه بشوش وابتسامه زائفة ، يملئ قلبه طاقة هائلة مضغوطة من الحقد ووازع الانتقام، هذا إذا سمحت له الفرصة بذلك.

ويل للسيد من العبد إذا اتيحت له الفرصة للانتقام، فالعبد يمتلك قوة هائلة من التدمير تراكمت طوال سنوات العبودية والاسترقاق، قوة مترصدة، تحوى كل أنواع الخسة والدناءة، إذا وجدت لهذه القوة منفذ فإنها تهدم وتقتل ، لا يهم أن يكون الغريم سيد متسلط أو قرين له من العبيد، فإن تظاهر العبد بالرحمة ضعفاً فباطنه لا يعرف الرحمة أو الشفقة، وفى تاريخنا القديم والحديث أمثلة كثيرة مثل ثورة العبيد فى روما القديمة بقيادة العبد سبارتكوس وثورة الدغماء فى فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر وثورة روسيا الماركسية فى بدايات القرن العشرين، وحتى وقتنا الحالى تقوم ثورات العبيد فى الدول الأفريقية ، ثورات لا ترحم السيد أو العبد وانتقام لا يفرق بين الرجل وبين المرأة والطفل. فلنقرأ ما كتبه نيتشه فى هذا الخصوص: « هناك ألاعيب وأكاذيب تجعل من الضعف - فضيلة - ، ومن العجز الذى لا يقوى على الانتقام - إحساناً - ومن الوضاعة الجبانة - تواضعاً - ومن الخضوع لمن يبغضهم المرء - طاعة - ووقوف الضعفاء موقفاً سلبياً وجبنهم جبناً شديداً، يقف عند الباب وينتظر فى استسلام، هذا كله يسمونه - صبراً، وقولهم - لا استطيع الانتقام لنفسى - يصبح - لا أريد الانتقام لنفسى، ثم هم يريدون أن يوقعوا فى روعى ليس فقط أنهم أحسن من الأقوياء وسادة العالم مع أنهم مضطرون إلى أن يلعقوا بصاق هؤلاء السادة» . . كتب نيتشه فيما كتب عن العبيد أنهم اخترعوا شيئين جديدين وهما:

أولاً : وجود ذات وحقيقة لها كيانها الخاص ومنفصلة عن الجسم.

ثانياً : القول بحرية الإرادة، فتمكن الضعفاء والمضطهدون من أن يخدعوا أنفسهم، ويخدعوا غيرهم، فيزعمون أن الضعف بإرادتهم واختيارهم وليس مفروضاً عليهم وأن أفعالهم وردود أفعالهم القائمة على العجز هى - فضيلة منهم وطمعاً فى ثواب الآخرة.

حكمت مصر طبقة المماليك الذين جلبهم صلاح الدين الأيوبى من شمال أسيا منذ عام ١٢٥٠م، وانتهى عصر المماليك البكوات عام ١٨١١م ليبدأ عصر جديد من الأسرة العلوية، بداية عهد حكم الألبانى محمد على. . وصف لاين بول المماليك فى كتابه «القاهرة - حكم المماليك» بقوله: « لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التى لم تجمع فى طبقة من الأمراء فى أى زمان أو مكان، فبينما نعرف أنهم عصبة من الأفاقين ابتيعوا بين السلع ونشأوا أرقاء، وربوا سفاكين للدماء، ظالمين للعباد، مخربين للبلاد ، نجد منهم ميلاً غريباً للفنون، يحق لأى ذى عرش وصولجان أن يفخر به على الأنداد والأقران، لم يتخلص المملوك من طباع العبد، فخان ونافق واستبد حين تمكن وتحكم». . لقد وصف أخلاقهم أيضاً أنور زقلمة فى كتابه «المماليك فى مصر» : «ومما اتصف به المماليك خيانتهم الفظيعة، وذلك لأن تاريخهم كله عبارة عن حوادث خيانة متواصلة، وبينما نجد المملوك منهم يصل إلى العرش على أكتاف ثلاثة أو أربعة من مساعديه نجد أن أول ما يعمله عندما يصل إلى العرش أن يجز رؤوس أولئك البؤساء الذين ساعدوه على النهوض والوصول إلى الملك، ومما يجب أن يلاحظ على المصريين فى عصر المماليك أنهم فقدوا الروح القومية تماماً ولم يحاولوا أن يقوموا طول تلك العصور الطويلة ولا مرة واحدة بمحاولة تدل على رغبتهم فى طرد أولئك الأغراب وإعادة استقلالهم».

يذهب الفلاسفة إلى أنه بالرغم من أن الإنسان كائن اجتماعى بالغريزة إلا أنه قد يخوض المخاطر ويستمر فى صراع من أجل ذاته الفردية، فالتنافس فى مباراة رياضية من أجل الحصول على ميدالية ذهبية أو حتى فضية لا تعنى القيمة المادية لها ولكن من أجل إثبات الذات، وبنظرة مجردة لا يهم أن تكون الأول أو الثانى فى الترتيب المدرسى فكلاهما متفوقان ولكن الإحساس بكون الإنسان الرائد والمتقدم على الجميع يغذى طاقاته للمذاكرة والمثابرة حتى يفوز بهذا اللقب. قد يضحى الفرد بحياته حتى يحصل على لقب أول إنسان يصعد إلى قمة جبل ما أو أول رائد للفضاء. فتغطى الغريزة الذاتية الفردية على غريزة حب البقاء.

خلال النزال الدامى وأن كان الفرد أو كانت الجماعة تتمنى الانتصار والقضاء على الطرف الآخر، إلا أن غريزة الجماعة وغريزة الفردية الذاتية يتحدا للدفاع عن وجود الطرف الآخر، فالفرد يريد آخرين ليعيش معهم كما يريد الآخرين لكى يقدروه ويستمد منهم الشعور بزهو الانتصار وتبجيلهم له فان انتهى الآخر فسيعيش الإنسان وحيدا، ما من آخر يتسيد عليه ويشبع غروره. قد يتشفى المنتصر فى المهزوم ويستخدمه كعبد.. ولكن سيبقيه حى إذا وجد إنه بفناء المهزوم سيعيش وحيداً.. أنها غرائز كامنة فى جينات البشر حتى يستمر النظام البشرى قائم إلى ما شاء الله الخالق.

ذهب كلود شتراوس وهو أحد علماء الأنثروبولوجيا ، إلى أن العنصرية اختراع قديم، وأن فكرة الأخلاق والإنسانية المشتركة بين البشر جديدة نسبياً، كما كتب المؤرخ الأمريكى كافين رايلى فى كتابه (الغرب والعالم - تاريخ الحضارة): «لم يحدث أن تصورت قبيلة بدائية واحدة إن كل الدنيا أبناء ينتسبون إلى الآباء أنفسهم أو الإله نفسه .. وإنما آمنوا بأن لكل قبيلة أسلافها وآلهتها الخاصة، ولم تظهر الأديان التى تنادى بالأخوة الشاملة بين البشر إلا فى الألفى سنة الأخيرة».. سرد رايلى فى كتابه مثالين للعنصرية القديمة، أولهما عنصرية قدماء المصريين التى صورت الناس فى أربعة ألوان كمؤشر على أفكار المصريين عن التفوق النسبى أو الدونية النسبية. كان أقرب البشر إلى الإله مصرى من الشمال أسمر البشرة، يليه مصرى من الجنوب أسود البشرة، وأخيراً أوروبى أبيض البشرة، أما المثال الثانى عن العنصرية القديمة فكان عن العنصرية فى الصين فى عهد أسرة "هان" التى اعتبرت أهل أوروبا من ذوى الشعر الأصفر والعيون الخضراء من نسل القرود.. يرى كافين رايلى أنه بالرغم من استرقاق المصريين أو الصينيين أبناء الأجناس الأخرى، فأنهم لم يجعلوا من الرق العنصرى أسلوباً فى الحياة كما حدث فى الأمريكتين.

فى مقارنة بين الرق اليونانى / الرومانى ، والرق الأفريقى/العربى، كتب كافين رايلى: «فى مملكتى رواندا وبوروندى التقليدتين بوسط أفريقيا كانت استقراطية التوتسى - التى تضم حوالى ١٥٪ من السكان تحكم الأغلبية من الهوتو، وهم

أقصر قامة، ومن التوا وهم الأفتح لونا. . وبالمثل حكم بعض المسلمين العرب قبائل الهوسا فى نيجيريا أصحاب الجلد الداكن. . وحدث لديهم ارتباط بين البشرة الفاتحة والسيادة الطبيعية ولكن هذه الممارسات لم تكن عامة بين المسلمين أو الزنوج الأفارقة. . فالاسترقاق الأفريقى من حيث المبدأ - كما فى اليونان وروما - لا شأن له بالعرق. . بل أن أقسى الرق فى العالم القديم هو الرق اليونانى / الرومانى وليس الرق الأفريقى. . لقد استخدام اليونان والرومان عبيدهم من جميع الأجناس فى العمل الشاق فى الزراعة. . بينما استخدم الأفارقة المهزومين كمعاونين ومساعدين فى الأعمال المنزلية، كما يرى رايلى أن الأوروبين الغربيين فى العصر الحديث هم الذين طوروا الرق واستخدموا الاستعباد على نطاق واسع، بنقلهم جماعات سكانية بأسرها من أفريقيا إلى عالم جديد، وحطموا عائلاتهم ومحوا شخصياتهم وتراثهم وعاملوهم معاملة الحيوانات.

تعددت أسباب الصراع بين البشر، منها الحصول على الاحتياجات الرئيسية إذا رأى الفرد أن غيره يتحكم فيه ويضن عليه لإشباع هذه الاحتياجات، ومن عدوانية اليأس الذى يجد نفسه لن يخسر شيئاً فى صراع طالما أن حياته منتهية، ويتبقى صراع المنافسة من أجل أن يضع الإنسان نفسه فى مكانة متقدمة فى السلم الاجتماعى، هذا الصراع الذى يتمخض عنه كون السيد وكون العبد، قد ينشأ الصراع الأخير من أمور تافهة وما أكثر المبررات، وما أسهل تفسير الأمور حتى تتوافق مع أرائنا ومعتقداتنا، وضع الإنسان وفق هواه معايير للتقييم، حتى بعض القيم الدينية اختلفت باختلاف الأديان السماوية والغير سماوية، وبصفة عامة دائماً ما يميل الفرد إلى مافيه مصلحته الشخصية ويختار عقائده وقيمه ومعاييرة التى تتواكب مع هذه المصلحة.

يعيش بعض الناس مؤمنين بحتمية القدر، وقد اكتسبوا هذا الإيمان من خلال التجارب الشخصية، ومن العقيدة، والأساطير الموروثة، فعندما يقتنع الفرد بأن مصيره غير قابل للتغير، وأن لا مفر من قدره، فمن السهل عليه أن يعيش راضٍ عن مصيره أو قدره المحتوم، فلا فائدة من المقاومة والكفاح، وحيث لا يجدى السعى من وجهة نظره إلى تحسين وضعه أو نيل حريته المفقودة، إذا قدر له أن يعيش منبوذاً، أو

فى وضع اجتماعى متدنى، أو كعبد ذليل، حتى الأحلام قد تتضاءل أو تنمحى ولايتبقى له إلا الأمل فى الفردوس الأعلى، كتب ريتشارد هوجارت فى هذا المجال ما ورد فى كتاب "المقاومة بالحيلة" :« عندما يشعر الناس أن ليس فى إمكانهم أن يفعلوا الكثير بصدد العناصر الأساسية فى وضعهم، ويشعرون بهذا، ليس بالضرورة مع كثير من اليأس أو الخيبة أو الغضب، بل بوصفه حقيقة من حقائق الحياة، نجدهم يتبنون إزاء هذا الوضع مواقف تسمح لهم بأن يعيشوا حياة يمكن عيشها من دون أن يخالجهم شعور دائم وضاغط بالوضع الأكثر اتساعاً ككل. وهذه المواقف هى التى تزيح العناصر الأساسية للوضع لتصنيعها ضمن ملكوت القوانين الطبيعية، والبعد المعطى سلفا والذى يبدو الآن وكأنه المادة اللازمة بالضرورة ليعيش الحياة. . إن مثل هذه المواقف، التى تبدو فى نهاية الأمر منتمية إلى نوع من القدرية، وتستتبع القبول الكلى، غالباً ما تكون تحت المستوى التراجيدى، وتنتمى كثيراً إلى وضعية الافتقار إلى خيار آخر».

لقد عاشت الجماعات الدنيا بثقافات تحتية مميزة، قد تكون هذه الثقافة غريبة وشاذة للإنسان السوى العادى، ولكنها بالتأكيد هى ثقافة نتاج عهود طويلة من الإحساس بالدونية والضعة، والإيمان بالطبقية والاستسلام، لم تغيرها ثورات قليلة، على مدى قرون كثيرة، انتهت بالهزيمة ، فترسخ الإيمان بحتمية الإذعان.

إذا كان الأرستقراطى الأوروبى فى القرون الماضية يحول أى إهانة كلامية إلى ميدان القتال المميت لأحد الطرفين المتنازعين ، فإن العبيد الملونين فى الولايات المتحدة كانوا يتدربون على المباريات الكلامية، التى لا يتحقق النصر فيها إلا لمن يسيطر على ذاته، ويتسم بضبط النفس لتحمل الإهانات البذيئة ، والسباب الذى يمس الأم أو الشقيقات. وعلى كل طرفى النزال أن يستنبط أحط الشتائم ، حتى يثير الطرف الآخر، الذى يحاول أن يكبح جماح غضبه حتى لا يخسر المباراة. أيضاً خلقت طبقة العبيد أساطير خاصة بها، تمجد فيها أبطال خياليين نابعين من جذورهم، أو تحلم فيها بالمدينة المثالية يوتوبيا. ثقافة لم تأخذ حقها من الدراسة والتحليل، إما لضعة هذه الطبقات، أو لتخدير الضمير لكى ينسى الإنسان ما يفعله برفيقه الإنسان، أو نظام بشرى فيه كل من الجبروت والضمير.

كتب عالم الاجتماع جيمس سكوت فى كتابه "المقاومة بالحيلة: « إن الجماعات الخاضعة ربيت اجتماعياً من قبل الآباء ضمن طقوس تكريم وتبجيل تقيهم شر الأذية، وعلى سبيل المثال، نذكر أن من تناقضات العبودية القاسية، أن يكون فى مصلحة الأمهات العبدات أن يبقين على أبنائهن فى روتينية الأمتثال والتطابق مع المألوف طالما أن أمنيتهن تكمن فى الحفاظ على سلامة هؤلاء الأبناء ، وإبقائهم إلى جانب الأمهات. هنا خارج إطار مسألة الحب، نراهن وقد ربين أطفالهن اجتماعياً بحيث يرضون سيداتهم أو سادتهم، أو على الأقل لا يثيرون نقمتهم. أما مدى عمق هذا الامتثال ، وكم ثمة من المشاعر الخلفية واللؤم الملون لها والذى يقف على خلفية هذا الأداء، فأمران من المستحيل سبرهما انطلاقاً من نظرة تقف عند السطح».

لم تكن السيادة والخضوع هى الفروق البارزة بين السادة والعبيد، فلغة وصيغ مخاطبة السادة تختلف عنها عند العبيد الأرقاء، قام علماء الاجتماع اللغوى بأبحاث عديدة للتحليل التاريخى لهذه الفروق، فكلمة (ولد Boy) التى يخاطب بها السيد عبده، تقابل كلمة (سيدى Sir) عندما يخاطب العبد سيده . فى دراسة شملت الفروق اللغوية، كتب جيمس سكوت فى كتابه "المقاومة بالحيلة" :« ان واقع السيطرة يمكن قراءته فى استخدام الأشكال اللغوية المصاغة بشكل تنعكس فيه وتستبق أجوبة الخاضع ، وعلى هذا النحو استخدم الشكل التساؤلى، مثل أليس الأمر كذلك. أو اللجوء إلى رفع رنة الصوت عند نهاية ما كان من شأنه أن يكون فى أحوال أخرى مجرد عبارات تصريحية، مما يشير إلى البحث عن طمأنينة ما، أو عن موافقة قبل مواصلة الكلام، ومن بين علامات الخضوع اللغوية الأخرى، الاستخدام المتزايد بصيغ الإفراط فى التهذيب مثل: هل يمكنك أن تكون من اللطف حتى ترضى، والتى تستخدم بدلاً من المطالبة بفعل شىء ما، أو الاستخدام المتزايد لقواعد اللغة المفرطة فى صحتها مثل: نوع من أو شىء من، وهو استخدام يكون من شأنه عادة أن يضعف أية جملة تصريحية، أن إجابات العبيد عادة ما تتميز بالهروبية والتسويف وادعاء الجهل والحمق والكسل والبلاهة خوفاً من المسئولية وهروباً من فعل شىء قد يفيد السيد» . فلنقرأ النصين التاليين اللذين وردا فى نفس المرجع، من

العبيد السود قبل وأثناء الحرب الأهلية الأمريكية :« ان الناس يعيشون ويموتون وسط الزنوج، دون أن يعرفوا - بالمقارنة - الشيء الكثير عن صفاتهم الحقيقية أنهم شيء أمام البيض، وشيء آخر أمام أهلهم الملونيين، الغش فى حضرة الأول كان واحدة من سماتهم المميزة ، سواء أكانوا مملوكين أو أحراراً، فى طول الولايات المتحدة الأمريكية وعرضها». ويقول العبد فى النص الثانى:«لقد عرفت دائماً كيف أمازح البيض بطريقة حسنة ، وكان على أن أمثل دور الأحمق فى بعض المرات - وكنت أعرف كيف أنه يتعين على ألا أذهب بعيداً وأدعهم يعرفون ما الذى أعرفه، لأنهم لو عرفوا لاستفادوا من ذلك بسرعة . . كنت أعرف أن على أن أكثر من التواضع وأن أسكت فى حالات كثيرة حتى أدبر أمورى ولقد نجحت فى هذا كثيراً إلى درجة أنهم لم يفقهوا من كل هذا شيئاً، لذلك كان فى وسعى أن أتوجه إليهم وأطلب منهم خدمة يؤدونها لى. لقد كان من عاداتهم أنهم يطلقون عليك اسماً محبوباً إن أنت أطعتهم، وتصرفت تصرفاً حسناً حين تلتقى بهم، ولم تطرح عليهم أية أسئلة حول ما يقولونه فى حقك. . أما إذا بدأت بالصراخ مطالباً بحقك، وشاكياً من سوء معاملتهم لك . . فأنه سيكون من شأنهم أن يقتلوك».

إذا تركنا العبد الأمريكى الزنجى، ورجعنا بالتاريخ إلى العصور القديمة واتجهنا بالجغرافيا إلى الشرق فى الهند البوذية، نقرأ هذا النص الذى ورد فى نفس المرجع السابق للعالم الاجتماعى جيمس سكوت :« إن عبيدنا يبدون تصرفاتهم الجسدية أمورا، وبكلامهم أموراً أخرى، لكنه فى أذهانهم أموراً ثالثة - أنهم ما إن يروا سيدهم حتى ينتفضوا واقفين آخذين منه ما يحمله بين يديه متلفتين منهمكين، يتركون شيئاً ويأخذون شيئاً آخر، وثمة آخرون يشيرون إلى مقعد، ويروحون عنه بالمروحة اليدوية، ويغسلون قدميه، فاعلين كل ما يتعين فعله. . لكنهم حين يكون السيد غائباً، نراهم لايهتمون حتى بما إذا كان الزيت قد نفذ، ولا يكلفون أنفسهم مشقة الالتفات لما إذا كان سيدهم قد خسر المئات أو الألوف. . إن أولئك الذين يبدون أمام سيدهم ضروب الخضوع له قائلين - يا سيدنا . . يا مولانا - يقولون عنه كل ما لا يقال ، وكل ما يشعرون أنهم بحاجة لقوله ما أن يغيب» . . نفس صفات

العبيد نجدهم حاليا فى خدم المنازل، والفلاح الأجير، والعامل اليدوى، والعاملين فى الجهاز الحكومى أو القطاع العام.. فالعامل أو الموظف الحكومى فى النظام الاشتراكى أو الشيوعى الشمولى ينظر إلى الدولة المالكة نظرة العبد إلى السيد، فهى التى تستخدمه نظير توفير احتياجاته الأولية من مأكل ومسكن وملبس.. لا مانع أن يتظاهر العامل أو الموظف بالعمل وهو لا ينتج، لا مانع أن يكذب أو يرتشى أو يسرق، فالمالك هو الدولة - السيد العام الغير متواجد الذى لا يحسن مراقبة أملاكه- فلا مانع أن ينهب العبد من هذا المال السائب ، لذلك فشل النظام الشمولى، وفشلت أيدلوچيته ، وانتصر السيد الخاص (قطاع خاص) الذى يدير ماله ويراقب عبيده بغض النظر عن إنسانية هذا النظام الجزئى - السيد / العبد (Subset) ، فإنه نظام يلائم النظام البشرى العام (Human System / Human Set).

إذا ارتدى الإنسان قناع السيد لوضع حاجز بينه وبين من أقل منه، ولرسم الهيبة والعظمة على نفسه .. يرتدى قناع السيد وجلبابه ، يتصرف كسيد ، يبدو حازماً وراضياً، يدعى الثقافة والوقار، فينبغى عليه ألا ينزعه، فخلع القناع سيجلب عليه سخرية ورثاء الآخرين من أسياد وعبيد، سوف يفقدا الثقة فيه مستقبلا. سيتعرض من يرتدى قناع يخالف طبيعته لضغوط نفسية من الخوف ومن عدم الاستمرار وما سيجلبه عليه خلع ثوب السيادة من آثار سلبية. سيضطر الممثل فى النهاية - ومعظم البشر يقوم بتمثيل دور مخالف لدوره فى الحياة المتماشية مع طبيعته وإمكانياته وظروفه - إلى الاستمرار فى التمثيل ونبذ فكرة خلع القناع، وكما قال العالم الاجتماعى جيمس سكوت: « على الملك الإلهى أن يعيش كإله، وعلى الملك المحارب أن يتصرف كجنرال شجاع» .. يعيش الممثل المرتدى قناع يخفى به طبيعته فى صراع مع الذات، محاولاً إقناع نفسه بغير مكنونات ذاته، متعرضاً للإصابة بانفصام الشخصية أو احتمال الانهيار.

ابتدع العبيد والمحكومون بالقوة طرق كثيرة للمقاومة السلبية والمقاومة التحايلية، بدلاً من التصادم مع السيد المسيطر يقوم الخاضع بالتراضى فى العمل أو نشر الأكاذيب والشائعات أو الحكايات الشعبية التى تسىء إلى السيد ، تتعدد صور

الاستهزاء فى ألفاظ وتعبيرات ظاهرها برئ وباطنها سخرية من الخاضع للتنفيث عن الكبت المكنون داخله ، وفى بعض الأحيان يكون الصمت الممزوج بابتسامة حادة ونظرة تحدى ستاراً يخفى وراءه شحن طاقة الغل والحقد الذى يعتلى سريرة خاضع ذاق قسوة الذل والهوان، ومرارة الصبر والحرمان. وتنتشر هذه الأساليب الخبيثة للمقاومة أيضاً فى الأوساط الشعبية الفقيرة، والتى تشعر بالخضوع للقوى المسيطرة من طبقات تعلوها اجتماعياً ومادياً. ومن مظاهر المقاومة السلبية أو الاحتجاج الخفى تدمير الممتلكات الخاصة، وتحطيم الآلات فى المصانع، ونزع المزروعات والأشجار، كلها أفعال لا تعود على المدمر بفائدة إلا التشفى والانتقام من طبقة أعلى، لقد عانى ملاك السيارات فى مصر مثلاً من تخريب سيارتهم بمرور آلة حادة (مسمار فى أغلب الأحيان) على هيكل السيارات المنتظرة أو تفريغ إطارات السيارة. لم تقتصر عملية التخريب والتدمير على الأملاك الخاصة فقط. بل تعدت إلى الأملاك العامة، حيث تكون نظرة هذه الطبقة إلى الأملاك العامة، هى نظرة العبد الخاضع إلى أملاك السيد، المالك، الحاكم، المستبد. يبرز هذا السلوك خاصة فى المجتمعات التى تتباين فيها الطبقات، وتتفاوت فيها الدخول، والشعوب التى تحكمها سلطة بعيدة عن الديمقراطية والحرية ولا يجد فيها الخاضع وسيلة للتنفيث عن مكنوناته الداخلية. لايستطيع الكاتب أن يفرغ ما بداخله من أفكار، خوفاً من حاكم مستبد أو من محكوم متزمت ومتطرف، وأقصى ما يمكن عمله أن يكتب بصورة مبهمة، عن مجتمعات أخرى خيالية ، ويمكن للقارئ الفطن أن يفهم ما بين السطور أو لا يفهم أحداً، فهذا شىء لا يهم إلا عدو يسعد بتفشى الجهل والظلام ، والكبت والاستسلام.

ظهرت صورة المحتال الشريف فى ثقافات الطبقات الدنيا، والتى ترى أن السيد القوى لا يمكن التغلب عليه إلا بالحيلة، أو بالسرقة، فانتشرت حكايات وليم تل السويسرى، وأدهم الشرقاوى المصرى. كتب جيمس سكوت فى كتابه "المقاومة بالحيلة" :«لا ضرورة لقدر كبير من التحليل الدقيق لنلحظ أن الوضع البنيوى للمحتال البطل، والخطط التى يستخدمها تحمل شبهاً شديداً بالمأزق الوجودى

للجماعات المحكومة . . وشعار المحتال البطل يظهر فى الواقع فى قول للرقيق من كارولينا الجنوبية - أحدى الولايات المتحدة الأمريكية - هو للبيض مكائدهم وللزنجى حيلة، ولقاء كل مكيدة واحدة من البيض، يحتال الزنجى مرتين، أن قصص المحتالين تضم كذلك قدراً من العنف والعدوان. . وهناك إثبات يربط مثل هذا النوع من العدوان الجامح بأوضاع انتقامية حادة، ولاسيما الحكايات الشعبية العدوانية بمجتمعات تكتب العدوان المكشوف. . وبدون أن نتناول نظريات التصور أو الإسقاط والتنحية، يكفى أن نتنبه إلى أن المضطهد الذى يخدع خصمه المسيطر عادة فى هذه الحكايات يستغل تغلبه حتى تحقيق الثأر الجسدى التام. . إن حكايات الصور المتحركة والتى تعرض مشاهد - توم - (الفأر) الضعيف الذى ينتقم بالحيلة من (القط) القوى المستبد - چيرى-، والتى تلقى قبولاً لدى الكبار والصغار، ما هى إلا إسقاط لنظرة الطفل الضعيف إلى الفرد القوى، والذى يخضع له الطفل، متمثلاً فى الوالدين أو الأخ الأكبر أو من هو أكبر وأقوى منه من أقرانه فى المدرسة أو المجتمع المحيط . . كما يمثل انتقام الفأر الضعيف لدى الإنسان البالغ رغبته فى الانتقام من الأقوى منه».

كان السيد الذكى - خاصة فى العصور الحديثة - يسمح للعبد بتفريغ بعض من الضغط النفسى عن طريق تساهله فى بعض الأحيان حتى لا يسبب الضغط الواقع على العبد، تهوراً أو يأس مدمر، يسبب الضرر للسيد. . سمح السادة البيض للأرقاء الزنوج فى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية التى يكثر فيها الزنوج، بإقامة الاحتفالات والكرنفالات كوسيلة للترفية والتسلية بعد مجهود شاق فى الزراعة والخدمة المنزلية، أيضاً للتنفيث عما يجيش فى داخلهم عن طريق النكات أو السخرية من سادتهم، وأصبحت هذه الاحتفالات صمام أمان ضد أعمال التمرد، والعنف، والنهب من مجتمع الطبقة الدنيا من عبيد وفقراء أحرار، كانت أعمال السرقة والنهب، والتخريب وحرق المحصول، تعتبر شجاعة وعمل انتقامى غير شرير فى ثقافة هذه الطبقات. . ابتدع السيد الجديد من رجال أعمال وساسة، الكثير من وسائل الترفيه والاحتفالات، والكرنفالات، والمهرجانات الفنية والأدبية، والمباريات الرياضية، والمسابقات الأولمبية، لشغل وقت فراغ الطبقات العاملة،

وللتنفيث عن ضغوط العمل، وتحويل الأنظار عن التفاوت الطبقى، والنظرة التباينية، التى غالباً ما تؤدى إلى العصيان والتمرد.. إن نجاح عصيان واحد أمام جماهير عريضة لها أثار سيئة للسيد الذى غالباً ما يواجه عصيان أكثر من فرد، أو تمرد شامل، إذا لم يقمع العصيان الأول بحزم، وبدون شفقة، فعلى السيد إما أن يسمح بدرجة من التساهل المخفى (التساهل مع التظاهر بالحزم) لتخفيف الضغط عن الطبقة الدنيا وحتى لا يحدث انفجاراً سيء الآثار من الصعب معالجته، أو أن يواجه أى عصيان أو تمرد بالشدة ومن غير رحمة ودون تهاون.

لقد انتهى عهد جلد العبيد بالسياط، وتحول الجلد إلى ضغط نفسى لتلبية احتياجات الفرد وأسرته، مع تنوع المنتْجات وكثرة الاحتياجات، وزيادة الجرعات الإعلانية.. إذا كان القليل يكفى لإشباع المتطلبات الأساسية من طعام أو شراب أولاً، فإذا تم هذا الإشباع يبدأ الإنسان فى السعى لسد الحاجة إلى الكساء والسكن، ولكن هل يكتفى الإنسان إذا تم تلبية جميع احتياجاته الأولية، بالطبع سيكمل مسيرة السعى لنيل مزيد من الاحتياجات وللظهور بمظهر لائق من أجل وضع اجتماعى متميز، فى مجتمع يشعر فيه بلذة التفاخر والمباهاة.. فى جميع المراحل السابقة يوجد احتمال التنافس والصراع.

ظهر فى القرون الوسطى فى أوروبا المظلمة، وفى الشرق والدول الشيوعية فى القرن العشرين نوع آخر من الاستعباد، وهو الاستعباد الفكرى أو الأيدلوچى ، لايسمح للفرد فيه أن يعبر عن رأيه الذى يخالف رأى النظام السائد، اعتقلت السلطة الديكتاتورية السيد أو الإنسان الحر، ومارست فيه كل أنواع العذاب البدنى والنفسى حتى لا يغير من أفكارها ومعتقداتها، الموت أو السجن مدى الحياة كبديل لحرية الإنسان الذى حرر أفكاره من معتقدات الجدود الموروثة أو من كانت له أفكار جديدة لا تلائم السلطة الديكتاتورية.

سوف نسرد فقرة من كتاب «نهاية التاريخ» للكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما الذى نقلها بدوره من "مقدمة لقراءة هيجل" لألكسندر كوچيف: « الإنسان الكامل

الحر حرية مطلقة، الذى يرضيه حاله الذى هو عليه على نحو قاطع ونهائى، هذا الإنسان الذى بلغ حد الكمال والاكتمال بهذا الرضا ومن خلاله، هو العبد الذى انتصر . . فإن كانت السيادة الخاملة طريقاً مسدوداً، فإن العبودية النشطة هى مصدر كل تقدم إنسانى واجتماعى وتاريخى، وما التاريخ إلا تاريخ العبد النشيط» ، ولكن تعليقنا على هذا القول هو أنه إن كان للعبد النشيط حافز قوى لكسر نير العبودية من خلال تحسين أحواله وابتكاراته واختراعه والخوض فى الحروب للدفاع عن أسياده ، فإن السيد أيضاً ان وجد عنده حافز إرادة القوة للترقى والصعود إلى أعلى سلم الوضع الاجتماعى، وبدافع القضاء على ملل وقت الفراغ، فإنه يبتكر ويتفوق فى الفنون والعلوم الأدبية والاقتصادية وغيرها . . السيد والعبد، كل منهما قد تخور همته ويستسلم إلى قدره، فيهمل السيد نفسه ويضيع منه كل شىء من ثروة ومركز اجتماعى وكرامة، كذلك يرضى العبد بعبوديته وكونه كحيوان بشرى يباع ويشترى . . أيضاً لكل منهما حافز للصعود، فالسيد يصبو إلى التفوق على أقرانه الأسياد، يريد المجد والشهرة ، فطمع وغرور الإنسان لا ينتهى ويسميه البعض الطموح والكبرياء، أما العبد فيتطلع إلى كسر قيد العبودية من خلال العمل والتفوق فيه، يريد العبد أن يكون حراً، سيداً جديداً فى عالم مفعم بالأسياد والعبيد، ومن هنا جاءت الدورات من صعود وهبوط، من تسيد واستعباد، هذه الدورات التى تعتبر من سمة النظام الكونى وما أكثر من سمات الكون.

بحث كثير من المصلحين الاجتماعيين والفلاسفة السياسيين على مر التاريخ موضوع السيادة والعبودية والديمقراطية والطغيان، ولكن مقالة العبودية المختارة للفرنسى اتين دى لابويسيه فى القرن السادس عشر كانت تعتبر بداية الحث على الثورة ضد الطغيان والعبودية فى القرون الوسطى تمهيداً لانتشار الفلسفة السياسية الحديثة لتبدأ القارة الأوروبية بعد ذلك بعدة قرون فى تطبيق النظم الديمقراطية والحرية السياسية . . تعجب لابويسيه من الذين استحبوا العبودية ورضوا عنها بالرغم من أننا كبشر قد خلقنا أحراراً: « أى رذيلة تعسة؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس لا أقول يطيعون بل يخدمون ولا أقول يحكمون بل يستبد بهم . . لا ملك لهم ولا أهل

ولا نساء ولا أطفال بل حياتهم نفسها ليست لهم! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبى ينبغى عليهم الذود عن حياتهم ضده بل من واحد، لا هو بهرقل ولا شمشون بل خنث».

الكثرة تغلب الشجاعة ، ولكن إذا وجدت الكثرة وتفشى الجبن فلا طائل منهم، وفى هذا يكتب لابويسيه فى نفس المرجع السابق: « لو أن رجلين ، لو أن ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد لبدا ذلك شيئاً غريباً لكنه ممكن، لو سعفا القول عن أن الهمة تنقصهم، ولكن لو أن مائة، لو أن أن ألفا احتملوا واحداً ألا تقول: أنهم لا يريدون صده، ليس لأنهم لا يجرؤن على الاستدارة له، لا عن جبن بل احتقار له فى الأرجح واستهانة بشأنه، فأما أن نرى لا مائة ولا ألف رجل، بل مائة بلد، ألف مدينة، مليون رجل، أن نراهم لا يقاتلون واحداً، أقصى ما يناله من حسن معاملته أى منهم هو القنانة والرق، فأنى لنا باسم تسمى به ذلك، أهذا جبن؟ إن لكل رذيلة حداً تأبى طبيعتها تجاوزه، فلقد يخشى اثنان واحدا ولقد يخشاه عشرة، فأما ألف، فأما مليون ، فأما ألف مدينة إن هى لا تنهض دفاعاً عن نفسها فى وجه واحد فما هو بجبن لأن الجبن لا يذهب إلى هذا المدى، كما أن الشجاعة لاتعنى أن يتسلق امرؤ وحده حصناً أو أن يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة . . فأى مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذى لا يستحق حتى اسم الجبن، ولا يجد كلمة تكفى قبحه والذى تنكر الطبيعية منعه، وتأبى اللغة تسميته؟».

وكما دعى لابويسيه فى هذ المقال إلى الثورة، فقد دعى أيضاً إلى المقاومة السلبية من خلال الامتناع عن مساندة الطاغية ليفقد قوته، هو الذى يقهر نفسه بنفسه أو يثور لينال حريته، وفى تسلسل منطقى عرض لابويسيه عملية القناعة بالعبودية: « وأنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تم خضوعه يسقط فجأة فى هاوية من النسيان العميق لحريته إلى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها، ويجعله يسرع إلى الخدمة صراحة وطواعية حتى ليهيأ لمن يراه أنه لم يخسر حريته بل كسب عبوديته . . صحيح أن الناس لا يقبلون على الخدمة فى أول الأمر إلا جبرا وخضوعاً للقوة، ولكن من يأتون بعدهم يخدمون دون أن يساورهم أسف ويأتون طواعية ما

أتاه السابقون اضطرارا، ذلك أن من ولدوا وهم مغلولو الأعناق ثم اطعموا وتربوا فى ظل الاسترقاق دون نظر إلى أفق أبعد يقنعون بالعيش مثلما ولدوا. . ثم إنه لما كان التفكير فى حالة مختلفة أو فى حق آخر لا يطرأ على بالهم ، فهم يأخذون وضعهم حال مولدهم مأخذ الأمر الطبيعى».

كثير من المجتمعات لم تعرف نظام الرق والاستعباد طول تاريخها، فشعب الأسكيمو الذى يعيش فى القطب الشمالى ، فى بيئة جرداء باردة، وشتائه طويل ومظلم، وصيفه قصير ومعتدل نسبياً، لا يوجد فى هذه المجتمعات ملكية خاصة عدا الأدوات والمعدات الفردية. . فهم يصطادون الأسماك والطيور والحيوانات ذات الفراء، يأكلون لحمها، ويحيكون فرائها ويصنعون من عظامها أدواتهم المنزلية، ومعدات الصيد، توزع أعباء العمليات الإنتاجية، ونتاج عملهم من طعام ومصنوعات بسيطة، بالتساوى على الجميع، نساء أو رجال فى أدغال أفريقيا وفى الجزر المتناثرة فى المحيط الباسفيكى والأطلنطى وقبائل الهنود الحمر، لم يعرف هذا النظام الذى ابتدعته الحضارات القديمة، ففى هذه المجتمعات تعيش الأسرة أو القبيلة حياة تعاونية يسودها الحب والوئام . . حتى إذا اتسمت بعض القبائل بالعنف فهو عنف لا يؤدى إلى نظام العبودية. . فجميع مشاكلهم واختلافاتهم يتم حلها إما بطريقة سليمة عن طريق مجالس القبائل أو مجالس العشائر، أو بقتال يؤدى إلى إنهاء الحياة، مجتمعات لم تعرف النظام الطبقى، لا فى الدين أو فى التوازن الاجتماعى. . إذ توجد مجتمعات عاشت ومازالت تعيش دون ذل العبودية وهوان الخنوع، إذ تستطيع باقى المجتمعات - وخاصة المجتمعات الشرقية - أن تثور ضد العبودية بجميع دروبها ، هذا إذا أرادت الشعوب ، ورضت بالتضحية دون الذل والهوان.


العبودية
على مر العصور

العبودية على مر العصور

كانت العبودية فى العصور القديمة شكل اجتماعى مقبول، يعود بالفائدة على المجتمع واقتصاد البلاد فى جميع الحضارات القديمة، فى الشرق الأوسط والهند والصين وروما وبلاد الأغريق. . فكان العبيد يعملون فى المنازل والزراعة والتعدين وبناء المعابد وتمهيد الطرق وكمحاربين ، وكانت الجوارى تعمل فى المنازل أو فى الحانات. . وقد عرفت أيضاً الحضارات الأمريكية القديمة نظام العبودية والاستبداد الطاغى، فقد تم استخدام العبيد فى حضارة الأزتيك (Aztec) فى شمال المكسيك، والأنكا (Inca) فى الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية (بيرو وشيلى حالياً) ، والمايا (Maya) فى جنوب المكسيك للعمل فى الزراعة ومن أجل راحة ورفاهية السيد المالك. . كان العبد مثل الحر يقدم كقربان بشرى فى حضارات قائمة على عبادة الشمس والقمر والجبال.

العبودية فى العصور القديمة :

بدأت المدينة مع بداية معرفة الزراعة المخططة، فتقوم عملية تنظيم العمل على استخدام الغير، هذا الاستخدام الذى بنى غالباً على الإرغام والاستعباد فحدث التفاوت بين القوى الذى يستطيع أن يحمى ويصون قطعة أرض وبين الضعيف الذى ليس لديه القوة لأن يحمى أرضاً مشاعاً فى كوكب لم يكن معروف كنيته فى ذلك الوقت وهو كوكب الأرض. . لقد تنبه العقل البشرى للإنسان القوى بأنه بدلا من قتل غريمه ففى الإمكان استعماله ليقوم بعمل الماشية، وبدلاً من شيه وأكله، فمن الممكن استخدام الأسير فى الخدمة داخل المنزل أو خارجه، ومن ذلك الحين أصبح الرق جزءاً من النظام الإنسانى، هذا النظام الذى وجد داخلنا بالوراثة.

ساعد الرق فى قيام الإنسان بالصناعة وزيادة إنتاجه. .لقد نظر أسلافنا حتى الفلاسفة منهم مثل الفيلسوف الأغريقى أرسطو إلى الرق كنظام فطرى لا غنى عنه، وأصبح الإنسان الضعيف العاجز عبداً لمشيئة القوى القادر فزادت قوة القوى وتهاوت

قدرة الضعيف واتحد الأقوياء ليزدادوا قوة وانفرط عقد الضعفاء ليزدادوا ضعفا واتسع البون بين طبقتى الأقوياء والضعفاء، ومن حين إلى حين يثور الضعيف ضد القوى فيقوم الصراع الذى قد يؤدى إلى حروب.

لقد كتب وول إيربل ديورانت فى موسوعته (قصة الحضارة) الجزء الخاص بنشأة الحضارة، أن أكل اللحوم البشرية كان شائعاً بين الناس جميعاً فى كل القبائل البدائية كما وجد بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان ايرلنده وإيبيريا وفى الدنمارك فى القرن الحادى عشر، وكان الأحياء فى الكنغو يباعون ويشترون رجالاً ونساءً وأطفالاً باعتبارهم مواد غذائية، كما كان اللحم البشرى يباع فى الأسواق كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى فى وقتنا الحالى.. وطالما شرب إنسان بعض القبائل الدم البشرى انتقاماً أو دواءً أو كعقيدة دينية.

وجد بعض الناس مع التطور الطبيعى فى السلوك البشرى، وبالعقلية الاقتصادية أنه بدلاً من قتل الضعيف أو المنهزم فى الحرب أو فى عراك، يمكن استعباده واستخدامه للعمل فى المنزل أو فى الحقل.. فبغريزة المجتمع يريد الإنسان إنسان آخر يعيش معه ويؤانسه حتى لو كان عبداً، وبالغريزة السادية يتطلع الإنسان إلى شخص آخر يسيطر عليه ويعذبه، وعلى الطرف النقيض، بغريزة حب البقاء والماسوكية الكامنة داخلنا بنسب متفاوتة يستسلم الضعيف أو العبد أو الماسوكى إلى قدره مضطراً أو متلذذاً.

١ - الدولة السومرية :

فى غرب نهر الفرات، على امتداد النهر جنوباً وشمالاً وجدت الحضارة السومرية القديمة ومن أشهر مدنها مدينة أور (مسقط رأس أبو الأنبياء إبراهيم)، وبابل. منذ حوالى أربع آلاف سنة قبل الميلاد كانت تجارة الرقيق منتشرة بين السومريين وكانت حقوق الملكية مقدسة، لقد دلت الآثار على وجود طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء وما بينهما من الطبقات العاملة .. كان نظام الإقطاع وسيلة لحفظ النظام الاجتماعى فى الامبراطورية السومرية.. أما على الجانب الدينى فقد ابتزت الكهنة أموال الناس كما اتخذت الضرائب كوسيلة لابتزاز الزراع والصيادين إنتاج

كدهم وكدحهم ، لم تكن فكرة التوحيد ونعيم الجنة وعذاب النار قد تبلورت فى عقولهم بعد، كان التقدم بالقرابين إلى الآلهة طمعاً فى النعم الدنيوية، لقد سيطر الكهنة على عقول عامة الناس فأصبحوا عبيداً للكهنة، وخدم كهنة الهيكل أجمل الصبايا وأفتن النساء، وفخر أهل الفتاة بتقديم ابنتهم قرباناً للآلهة وكهنة الآلهة، فتمتع الكاهن، وتفاخر الأب بتقديم ابنته لخدمة واستمتاع الآلهة عن طريق كهنة الآلهة.

٢ - بابل :

نشأ الجنس البابلى من امتزاج السلالة السومرية والسلالة الأكدينية، وتمخضت بابل بشخصية تاريخية مشهورة حكم البلاد لأكثر من أربعين سنة وهو حمورابى هذا الحاكم القوى المستبد الذى حكم بابل فى الفترة (٢١٢٣ - ٢٠٨١ق.م) وسن خلال حكمه قانونه الذى مزج فيه التطور الحضارى والرقى القانونى من أقصى العقوبات وحشية.. لقد شملت هذه القوانين البالغ عددها ٢٨٥ قانوناً جميع مجالات الحياة، فاحتوت على قوانين خاصة بالأملاك المنقولة، وبالأملاك العقارية، وبالتجارة والصناعة، وبالأسرة والعمل وخلافه من المجالات المتعددة فى ذلك الزمن.

خلصت الوثائق التاريخية أن الحضارة البابلية كانت تعتمد على التجارة والمادة، فكثر البيع والشراء وأعمال السمسرة وتبادل السلع والاتفاقيات التجارية، وكان شعب بابل عامة ثرى، نشيط يعيش فى رفاهية نسبية، ولكن أيضاً عرفت هذه الحضارة نظام الرق والعبودية، وتركوا لنا فى تاريخهم من عهد بنوخذ نصر عقود بيع خاصة بالعبيد الذين استرقوا من خلال الحروب والغارات كأسرى حرب.. كانت الجوارى تخدم فى المنازل تهيىء للسيد طعامه وشرابه وفراشه.. كان العبد وما ملكت يداه حقاً مملوكاً للسيد من حقه أن يبيعه أو يرهنه أو يقتله إذا اعتقد أن موته سيعود عليه بالفائدة من بقائه حياً .. إذا هرب العبد فان القانون لا يبيح لأحد أن يحميه كما كانت للدولة الحق فى إلحاقه فى الخدمة العسكرية أو تسخره للعمل فى الأعمال العامة الخاصة بالدولة مثل شق الترع وحفر القنوات وتمهيد الطرق.. كان يتم وشم العبد فى بابل، ويعاقب الطبيب الذى يزيل الوشم ببتر يده، كان العبد يعتبر من الممتلكات

المنقولة ، فأنه تم تصنيفه ما بين المعادن الثمينة والحيوانات الأليفة، وفى عهد حمورابى رخص ثمن العبيد، فقد بلغ ثمن العبد الذكر القوى عشرين مثقالاً، أى ما يعادل ثمن حمار. . كانت تجرى عمليات بيع وشراء العبيد بموجب عقود مكتوبة شاملة ضمان البائع للمشترى عن أى عيوب مستورة فى العبد، وجعل القانون مدة الضمان حوالى شهراً، كان السيد يقدم للعبد طعاماً يكاد يكفيه ليعيش ليخدم. . كثرت طبقة العبيد فى الدولة البابلية كنتيجة للحضارة المتقدمة على الدول المحيطة، وثراء الشعب البابلى وكثرة الحروب التى كانت تنتهى بانتصارهم . . فكثر عدد الأسرى وانتشرت العبودية.

لم يكن الملك فى بابل هو السيد الأعلى بل كان للكهنة سلطات عليا فلا يتم تعميد الملك إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية فقد كان يحتفل بتعميد الملك بإلباسه زى الكاهن فى احتفال عام حتى يظهر للعامة اتحاد الدين مع الدولة، كما كان يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتية. . كان الملوك يشعرون بشدة حاجتهم إلى غفران الآلهة فشيدوا الهياكل وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد.

كانت الكهنة تملك أعداداً كبيرة من العبيد مسخرين للعمل لديهم لخدمة الهيكل أو العزف على الآلات الموسيقية أو عصر الخمور أو قد يؤجرهم للغير مقابل مبلغ من المال يحصل عليه الكاهن السيد. . كثرت الآلهة العديدة التى خلقها خيال الكهنة الواسع، فكثرت العبيد لخدمة الآله وكهنة الآلهة ، فمنها (شمش) للشمس، (ننار) للقمر، (بعل) للأرض، وغيرها من الألهة وكانت أراضى شاسعة تترك وقفاً للكهنة للصرف من عائدها ، فاستقوت الكهنة وضعف الشعب.

٣ - أشور :

ظهرت الحضارة الأشورية منذ حوالى ٣٧٠٠ قبل الميلاد على بعد ٥٠٠ كيلو متر شمال بابل، ونشأت هذه الدولة العسكرية حول أربع مدن ترويها مياه نهر دجلة وروافده وهى أشور وأربلا والكلخ ونينوى. . وكانت سمة الحضارة الأشورية الحرب التى فرضها ملوكها على جيرانهم، وكان أعظم ملوكهم هو (تغلث فلاصر) الأول الذى ساق جيوشه فى جميع الاتجاهات فأخضع الحيثيين والأرمن لحكمه،

واستولى على بابل وهدد مصر ولكن انتهى عهد هذا الملك بعد ذلك بهزيمة جيوشه من بابل.

كان الحكم الأشورى استعمارياً، فقد بسطت الدولة الأشورية يدها على بلاد كثيرة منها بجانب أشور: بابل وأرمينية وميديا وفلسطين وسوريا وفينقية وسومر وعيلام وأقامت فى هذا الجزء من آسيا نظاماً مركزياً يسوده الرخاء.. كانت تغلب على هذه الدولة العسكرية روح العنف والهمجية والسادية .. دعنا نقرأ فى نشأة حضارة الشرق الأدنى للكاتب وول ديورانت الجزء التالى:

«كانت العادة المألوفة أن تدمر المدينة المغلوبة وتحرق عن آخرها، وكان الملوك يكسبون ولاء جنودهم بتقسيم جزء كبير من الغنائم بينهم، وكانوا يضمنون شجاعتهم باتباع العادة المألوفة فى الشرق الأدنى وهى اتخاذ جميع أسرى الحرب عبيداً أو قتلهم، وكثيرا ما كان الأسرى يقتلون عن آخرهم حتى لا يستهلكوا كثيراً من الطعام وحتى لايكونوا خطراً على مؤخرة الجيش أو مصدر متاعب له.. أما الأسرى الأشراف فكانت تجدع أنوفهم وتقطع أيديهم وأرجلهم أو يقذف بهم من فوق أبراج عالية أو تقطع رؤوسهم أو تسلخ جلودهم وهم أحياء أو تشوى أجسامهم فوق نار هادئة».

لقد تفاخر الملك الأشورى (أشور بانيبال) الذى توفى عام ٦٢٦ قبل الميلاد، فى بعض نقوشه أنه سلخ جلد كل من خرج عليه من الزعماء، وأعدم بعضهم بالخازوق وأحرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ولم يبق على واحد منهم حياً ليتخذه أسيراً.

كانت القوة الثانية بعد القوة العسكرية فى أشور هى القوة الدينية التى كان يستمدها الملك من الكهنة ولكن كانت هذه القوة غالية الثمن حيث كان رأس الدولة الرسمى هو الإله أشور الذى استمد من خلاله الكهنة قوتهم وثروتهم عن طريق الضرائب ومغانم الحروب.. كان الملك يجبر شعبه أن يصفوه بالإله الذى كان غالباً الإله (شمش).

كانت الفتوحات العسكرية هى المصدر الرئيسى للحضارة الأشورية ولكنها كانت أيضاً من أسباب انهيار هذه الحضارة . . كانت الجيوش الأشورية قوية لا تقهر فى ميدان القتال، فقد كان القائد أو الجندى الأشورى سيداً بمعنى الكلمة، من جسارة وإقدام وعدم الخوف من الموت، وبمرور الزمن تناقص عدد الأسياد ولم يتبق من الشعب الأشورى إلا الضعيف الحذر، من يملك طبيعة العبد، فضعف وتدهور النسل جيل بعد جيل مما أدى إلى انهيار أساس القوة التى اعتمدت عليها هذه الحضارة وانتهت كما انتهت كثير من الحضارات على مر التاريخ .

٤ - فينقية :

عاش الفينيقيون ، فى شريط ضيق من الأرض محصوراً بين البحر المتوسط وسوريا، تحرروا من حكم مصر عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، عملوا بالتجارة ونقل البضائع بين المدن الساحلية لثلاث قارات (أفريقيا وآسيا وأوروبا) عن طريق الطرق البحرية وأسطول بحرى متقدم بالنسبة لذلك الوقت .

كان الفينيقيون مثل قدامى التجار لم يفرقوا بين التجارة والغدر فانتهجوا اللصوصية والقرصنة، يستولون على السفن ويأسرون ملاحيها ويبيعوهم كالعبيد، أو يغدروا بالأهالى السذج فى البلاد التى كانوا يتاجرون فيها ويخدعوهم بحجة رؤية سفنهم ثم يبيعوهم عبيداً فى بلاد أخرى . . كانت مدن بابلوس ، وصيدا ، وصور من أهم وأغنى مدنهم، مدن مزدهرة بالتجارة، يحكمها طبقة من التجار الأثرياء فانتشرت الدعارة، خاصة الدعارة الدينية لآلهة الخصب والحب الشهوانى (عشتورت) ، وإن كانت الدعارة مهنة فإنها تعتبر نوع من العبودية تمتهن الإنسان بقوة المال أو قوة كهنة الآلهة .

٥ - الدولة العبرانية :

لم يؤثر تاريخ العبودية والتشتت فى مستقبل شعب كما أثر فى العبرانيين . تم استعبادهم فى مصر وتسخيرهم فى أعمال البناء حتى فر بهم موسى عبر سيناء، وبعد استقرارهم فى أرض الميعاد ظناً أن الزمان طاب لهم، زحف بنوخذ نصر البابلى

إلى أورشليم وهزمهم وعاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير يهودى، وعاود بنوخذ نصر الكرة وهدم هيكل سليمان رمزهم العقيدى، وعاش اليهود فى بابل كعبيد حتى تم غزوها من قورش الفارسى فأعطى لليهود الحرية أن يعودوا إلى أورشليم. . كما تذمر بعض اليهود وعاتب موسى لإخراجهم من مصر وحرمانهم من خيراتها وعدسها وثومها، أيضاً لم يتحمس بعض شباب اليهود للعودة إلى أورشليم تاركين ورائهم فى بابل أرضاً خصبة وتجارة رائجة.

لقد عاش اليهود تاريخاً طويلاً مزج فيهم كبرياء تاريخى وسيادة إلهية باعتقادهم أنهم شعب الله المختار مع عقد نفسية مليئة بمرارة العبودية والأسر فى مصر وبابل والحصار فى قلعة الماسادا والتشتت فى جميع أنحاء كوكب الأرض. . لقد كان هذا المزيج هو الحافز والدافع لإثبات ذاتهم والبحث عن أمنهم، هذا المزيج الذى شكل شخصية اليهودى ليصبح السيد العبد، تجده متفوقاً فى العلم والمال والفلسفة والسياسة والإعلام : إينشتين ، فرويد، كارل ماركس، وغيرهم، من الفلاسفة والعلماء، الثورة البلشفية فى روسيا كان كثيراً من الأعضاء البارزين فيها يهودا، من يتحكم فى السياسة والإعلام والمال فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا هم يهودا. . كان ومازال اليهود مثالاً للسيد العبد منذ نشأتهم وكما جاء فى كتبهم، يتصرف ملك أو نبى تصرف العبيد ويتنازل عن زوجته أو بناته، ثم يجيء آخر ليرسل قائد قواته العسكرية إلى مواجهة العدو ليستولى على زوجته، أو يجبر ملك آخر حكيم ملكه من بلد بعيد بالحضور إليه فى مملكته. . قاسى اليهود العبودية والأسر والحصار والشتات وسكنى حارات ضيقة زمناً طويلاً، فأيقن هذا الشعب القليل الأفراد نسبياً أن سياسة أرستقراطية السيد لن تجدى، فاعتمد على العقل والدهاء وبرع فيهما اليهودى وعاش بهما متسيد على الآخرين ولكن داخله لا ينسى أنه السيد العبد. . لقد تنازل اليهودى فى المنفى على كثير من عاداته ومعتقداته التى جاءت فى كتبه السماوية وفى كتب حكمائه حتى لا يثير عدواة الشعوب التى عاش وسطهم، أى رضى اليهودى أن يخالف معتقداته وأن يتنازل عن سلوك السيد طمعاً فى حب البقاء وأملاً فى خلاص مستقبلى فى أرض الميعاد.

٦ - الفرس :

كانت الدولة الفارسية أيام الملك دارا فى أوج مجدها فاتسعت حدود دولتها التى شملت مصر والشام وفينقية وليديا وميديا وفارس وإمارات أخرى بلغت العشرين. . يملك الأرض الإقطاعيون الذين كانوا يزرعونها من خلال مستأجرين نظير جزء من المحصول أو عن طريق العبيد الأجانب.

كان ملوك الفرس المتأخرين يعهدون شئون الحكم إلى الأشراف أو إلى خصيان قصورهم الذين كانوا يحرسون النساء ويحيكون المؤامرات داخل القصور الملكية، وبلغ عدد الخصيان الذين كان يتم إرسالهم سنوياً من بابل حوالى خمسمائة. . أما أشراف الفرس فكانوا يجبون الضرائب ويقودون الجيوش ويعملون فى القضاء، أى لهم اليد العليا فى إدارة شئون البلاد.

بالرغم مما جاء به زرادشت (٦٢٨-٥٥١ قبل الميلاد) من عقيدة قريبة من التوحيد وأن العالم هو ميدان للصراع بين الخير المتمثل فى السيد الحكيم (أهوارامزدا) خالق السماوات والأرض، والشر المتمثل فى الروح الشريرة (أهرامان) المنغمسة فى النوايا الشريرة والكذب، وبالرغم من اعتناق الفارسيين هذه الديانة التى كانت تحث على مكارم الأخلاق فقد وجدت الوحشية خاصة عند ملوك العهد الأخير للامبراطورية، فقضوا على خصومهم بدون شفقة أو رحمة فكانوا يصلبونهم ويباع أتباعهم كعبيد، ويخصى غلمانهم وتسبى نسائهم.

مثل أكثر الأنظمة فى هذا الكون التى تأخذ شكل دورات فقد انهارت الامبراطورية الفارسية التى وصلت إلى القمة فى عهدى دارا وقورش، لقد ساد الفساد وعمت الرذيلة فى هذه الأمبراطورية التى لم تدم لأكثر من مائتى سنة، فاجتاحت جيوش الأسكندر الأكبر بلادهم وهزم جيشهم الذى لم يكن قواده يرغبون فى القتال، فكانوا يحضرون سراريهم للتسلى بهم أثناء الحروب، فانتشر الفساد فى الجيش وثبطت العزيمة والهمة بين الجنود وانتهى بهم الأمر إلى الاندحار والانحدار.

٧ - مصر القديمة :

وصف د. جمال حمدان فى موسوعته (شخصية مصر) النظام الاجتماعى فى مصر القديمة: « هناك ثلاثة اتجاهات أساسية فى توصيف وتكييف أو تشخيص هيكل النظام الاجتماعى فى مصر القديمة هى على ترتيب ظهورها الزمنى: الاتجاه الإقطاعى، العبودى، الأسيوى. فالإقطاعى أقدمها وأوسعها انتشاراً» . . لقد كان النظام فى مصر إقطاعى بشكل عام نتيجة لوجود طبقة من كبار ملاك الأراضى الزراعية التى يعمل بها الفلاحون كأجراء . . أما وجود العبودية فى مصر فكانت عن طريق أسرى الحروب الذين كثروا خلال الانتصارات الحربية أو عن طريق بيع الفقراء أبنائهم أثناء المجاعات والأزمات . . لم يدخل العبد فى عملية الإنتاج أو الزراعة ولكن اقتصر عمله فى مصر القديمة على الخدمة المنزلية أو العمل فى المناجم وخاصة مناجم الذهب المنتشرة على طول الضفة الشرقية للنيل وفى بلاد النوبة، وكان الذهب يشحن بعد طحنه وغسيله إلى فرعون مصر ابن الآله العظيم آمون.

أما الاتجاه الثالث للنظام الاجتماعى فى مصر فهو ما أسماه د. جمال حمدان بالطغيان الشرقى الذى يرجع إلى طبيعة هذه البلاد من ضرورة الرى عن طريق النهر وفروعه وقيام سلطة عليا مركزية تشرف على تنظيم توزيع المياه على الفلاحين عن طريق جهاز ضخم من الموظفين. الكل يخضع له خضوعاً هرمياً مطلقاً . . وهذا النظام يتيح للدولة أن تملك وتتحكم وبالتالى فإن عامة الشعب لم يكونوا تابعين لأفراد كعبيد، وكذلك لم يكونوا أسياد ولكنهم تابعون لسلطة الدولة ممثلة فى فرعون ثم الأمراء والوزراء والكهنة ثم كبار الموظفين وصغارهم، أى كانت العبودية هى عبودية عامة وليست عبودية فردية كما دعاها فلاسفة الفكر الشيوعى ماركس وأنجلز ووصفها د. جمال حمدان فى كتاب شخصية مصر.

ألغيت الملكية الفردية للأرض فى مصر القديمة وأصبحت كل أراضى مصر ملكاً قانونياً للدولة ممثلة فى فرعون ابن الإله وحامى البلاد ، وقصرت حيازة الأرض على حق الانتفاع دون حق الرقبة، وأصبح الفلاح المصرى مجرد آلة إنتاج بشرية . أما الماء

الذى يعتبر أساس الحياة، منه يشرب الفلاح ومنه يروى أرضه فكان يتحكم فيه فرعون مصر عن طريق جهاز حكومى قوى ومنظم، وكان ثمن المياه بالنسبة للفلاح هو العمل مجاناً لحساب الدولة فترة من الزمن كل عام، يزرع ويحصد ويقيم السدود ويشق الترع ويبنى المعابد والأهرامات أو يعمل كجندى فى جيش فرعون الذى جمع كل السلطات فى يده فأصبح الحكم فردى مطلق لفرعون ابن الإله أى صورة من الحكم الأوتوقراطى.

دعنا نسرد بعض ما كتبه د. جمال حمدان عن العبودية فى مصر القديمة: « لقد جاء الطغيان الفرعونى نتيجة حتمية للدولة المركزية، التى كانت ضرورة حتمية للبيئة الفيضية.. وكما كان لهذه المعادلة مزاياها الواضحة، فلقد كان لها عيوبها الأوضح.. نعم، بها كانت مصر أول وحدة سياسية أو أول دولة موحدة فى التاريخ، لكنها أيضاً صارت بها على الأرجح أول طغيان فى الأرض، أقدم وأعرق حكومة مركزية فى العالم، ولكن أقدم وأعرض استبداد أيضاً.. لقد دفع المصرى منذ البداية ثمن وحدته السياسية المبكرة من حريته السياسية واشترى الأمن الاجتماعى بالحرية الاجتماعية .. وفى النتيجة أصبحت العلاقة عكسية بين المواطن والدولة، فتضاءل حجم الشعب بقدر ما تضخم وزن الحكم، وكلما كبرت الحكومة صغر الشعب».

انعكست هذه النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على شخصية المصرى على مر العصور فهى كما وصفه د. جمال حمدان فى كتابه شخصية مصر: «شخصية معتدلة، لا تميل إلى القسوة، ضعيفة هشة، باهتة هلامية، لا شكل لها ولا قوام، لا لون ولا طعم، غير حاسمة أو قاطعة أو إيجابية، بل سلبية تواكلية، سهلة التشكيل والانقياد». والسؤال هل سيسير المستقبل فى نفس الاتجاه العام للتاريخ المنقضى أم سيلعب القدر لعبته.. هل بعد التطور التكنولوجى فى نظم الاتصالات والمعلومات والانفتاح العولمى الجديد ستتأثر الحضارات ببعضها فتتغير شخصية المصرى، أم سيتضائل تأثير الحضارات الغربية بالنسبة لرسوخ الثقافة الشرق أوسطية فى عقلية المصرى لأكثر من خمسة آلاف سنة.

٨ - اليونان القديمة (هيلينيا) :

يقصد باليونان القديمة العصور السابقة على ميلاد المسيح، حيث كان الاستغلال البشرى فى اليونان أقل قسوة من بعض البلاد الأخرى المجاورة، فلم يوجد فى ذلك الوقت التميز الطائفى الشديد بين العامل وصاحب العمل، أما الطبقة الارستقراطية فكانت لا تميل إلى العمل اليدوى أو التجارة، فكان فى اعتقاد اليونانى الأرستقراطى القديم إن الإنسان الحر هو الذى يتحرر من الواجبات الاقتصادية وأن يستخدم العبيد ليعتنوا بشئونه المادية ليتفرغ هو إلى الآداب والفلسفة أو إلى الحرب والسياسة.

كان الغرباء الأحرار هم الطبقة الوسطى فى أثينا، يعملون فى التجارة والمقاولات والصناعة وكأصحاب حوانيت وأرباب حرف وفنانين ولكن حرم عليهم امتلاك الأراضى أو الانضمام إلى الهيئات الدينية.. كان يشارك الغرباء فى الحرمان من بعض الحقوق السياسية العتقاء من العبيد.. كان السيد يكافئ أشد عبيده إخلاصاً له بعتقه، كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقائه، أو افتدته الدولة نظير خدماته فى الحرب.. تكونت طبقة العبيد من الأسر فى الحروب أو من غارات الاسترقاق أو من الأطفال المشردين أو المجرمين، وكان الهيلينى يرى أن الأجنبى عبد بطبعه لأنه يبادر بالخضوع إلى الملوك، كان الرق تجارة رائجة فى المدن الهيلينية وأثرى من ورائها النخاسون، وكان أهل أثينا يستثمرون أموالهم فى شراء العبيد ثم تأجيرهم للعمل فى البيوت أو المناجم أو المصانع فكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو اثنين على الأقل، أما الجوارى فقد كثرت فى الريف الهيلينى وتخدم فى البيوت وتسرى على رب الأسرة.

ندد الفيلسوف اليونانى أفلاطون باستعباد اليونانى لقرينه، ولكنه أقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولاً غير ممتازة، كما كانت نظرة أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية وكان يعتقد أن العبودية ستستمر حتى تؤدى الآلات التى تدور بنفسها جميع الأعمال الحقيرة.

إن كان اليونانى القديم رحيماً بعبيدة إلا أنه استبعد فكرة إلغاء العبودية، فلسفة يونانية قديمة تستهلك وقت فراغه ولكن تخدم مصالحه فى نفس الوقت.

٩ - الامبراطورية الرومانية :

كانت العبودية فى الامبراطورية الرومانية تختلف عنها فى بلاد الأغريق التى كانت تعامل العبيد بإنسانية ورحمة، فكان السيد المالك بقوة القانون له الحق فى البقاء على حياة العبد أو قتله . . اعتمد شعب روما القديمة على العبيد فى تنمية اقتصادهم لوجود عجز فى الأيدى العاملة حيث كان المواطنون الأحرار يشتركون فى الغزوات والفتوحات العديدة التى قامت بها الامبراطورية الرومانية، فكان العبد يحل محل المالك فى العمل وفى الحقل أو فى التجارة كما كان يقوم بخدمة أهل البيت .

توفر العبيد بأعداد كبيرة فى الامبراطورية الرومانية القديمة كنتيجة لأسرى الحروب العديدة التى خاضتها الامبراطورية، كما كانت العبودية أيضاً تتم كوفاء لدين، فكان المدين يبيع نفسه أو أحد من أفراد أسرته لتسديد دينه. كما كانت العبودية أساس التنمية الاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية فقد كانت أيضاً من ضمن أسباب انهيارها . . أن الأسباب الجوهرية لسقوط الامبراطورية الرومانية هى النزاع بين طبقاتها ، وكساد تجارتها، وحكومتها الاستبدادية البيروقراطية، وحروبها المهلكة، فعندما أراد أورليوس فى القرن الثالث الميلادى أن يسد ما حدث من نقص فى جيشه جند العبيد والمجرمين ، فقد قل عدد الرجال الأحرار الذين كانوا عماد الجيش الرومانى القوى، واعتمد الجيش على عبيد تنقصهم الخبرة الحربية وحمية القتال، فانهار الجيش وانهارات الأمبراطورية .

١٠- الهند :

تعتبر الحقبة الدرافيدية نسبة إلى قبائل الدرافيديا أقدم حقبة فى تاريخ الهند، فكانت لهذه القبائل حضارة متقدمة تماثل حضارات الشرق الأوسط فى مصر وبابل، لم تكن الهند فى ذلك الوقت دول موحدة بل كانت منقسمة إلى ممالك صغيرة وإمارات، بها أحياء ارستقراطية وأحياء فقيرة، فقد أكدت الأثار الباقية من تلك العصور عدم وجود مساواة اجتماعية لدى الدرافيين .

فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد اجتاحت الهند قبائل أرية قادمة من آسيا الوسطى، اتسم الآريون بالشجاعة فى الحروب والقسوة فى المعاملة وكانوا يتألفون من تسع قبائل أهمها قبيلة (البهارات) . . عاش الهنود الآريون على أسلاب الحروب فى أول الأمر، ثم استقر بهم الحال بعد فترة وأصبحوا حضريين، مقيمين، يشتغلون بالرعى والزراعة بعدما أبادوا عدد كبير من السكان الدرافيديين وجعلوا المتبقى منهم أرقاء أو خدما يعملون فى منازلهم.

هبط الآريون إلى الجزء الجنوبى من الهند عبر الألفية الأولى من التقويم الميلادى، وأخضعوا سكان الهند إلى نظام طبقى يتكون من أربع طبقات مغلقة تسمى (فارنات) . . كان البراهمة وهم كهنة ينتمون إلى الطبقة (الفارنا) العليا، ثم يأتى بعدهم طبقة المحاربون، ثم طبقة السودرا ، وهى الطبقة العاملة من فلاحين وحرفيين وتجار، وأخيراً طبقة العبيد والخدم، وقد أقيمت بين الفارنات أو الطبقات المغلقة حواجز محكمة وكانت الزيجات بين هذه الطبقات محظورة تماماً، كما كانوا يعتبرون الأولاد المولودون من هذه الزيجات مدنسين ويضعون فى فئة المنبوذين (الباريا) . . كانت طبقة البراهمة لها امتيازات كثيرة مثل الإعفاء من الضرائب . . كما كانوا محررين من أعمال السخرة ، وكان لا يمكن إلحاق أى عقوبات جسدية بهم.

لم تكن طبقة السودرا (طبقة العبيد والخدم) تتمتع بأى حقوق، فإذا قتل أحد من الطبقات العليا فرد من طبقة السودرا، دفع غرامة تعادل غرامة قتل كلب. . إن الرق وإن كان منتشراً فى الهند القديمة، إلا أنه كان يتصف بصورة عامة بطبع عائلى، فالآريون المدنيون لم يكونوا يعتبرون بمثابة أرقاء إلا بصورة مؤقتة، وكان يرخص بالزواج بين أحرار وأريين من العبيد، ولكن فى حدود الفارنا الواحدة أى الطبقة المغلقة الواحدة.

١١ - الصين :

ترجع أقدم حقبة فى تاريخ الصين إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وكانت تحمل اسم (شانغ - ين) ، كان الاقتصاد الصينى قديماً يقوم على زراعة الشعير، ثم الذرة

والقمح والأرز بعد ذلك، وكذلك زراعة شجر التوت الذى اعتمدت عليه صناعة الحرير التى اشتهرت بها الصين حتى وقتنا الحالى.

تأسست الدولة المركزية فى الصين فى عهد (تشيوو) فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، وكان التنظيم السياسى يقوم على أساس أن الامبراطور يستمد سلطته من السماء، فهو يحكم وفقاً للحق الإلهى الذى يخوله سلطة مطلقة، فكان الامبراطور يعتبر ابن السماء أو وكيل السماء.. عرف الصين نظام الاستبداد فى عصر الامبراطور (شيه هوانغ - تى) ، فتولد استياء الشعب من القهر والاستبداد وسانده أنصار الكونفوشيوسيه المستنيرة والتى كانت تدعو إلى ممارسة الفضائل الإنسانية والاستقامة وولاء الأبناء للآباء للحفاظ على الجانب الإنسانى ، واقتلاع جذور الشر الكامن فى البشر وإحلال الخير محله.

اتسم نهاية القرن الثالث قبل الميلاد فى حكم آل هان ببعض التخفيف للاستبداد، وأعيدت الحرية إلى من كانوا قد باعوا أنفسهم كعبيد، وأعلن مذهب كونفوشيوس دينا للدولة، ولكن تغير الحال فى عهد حكم ووتى (١٤٠-٨٧قبل الميلاد) بتزايد عدد كبار الملاك الذين كانوا يستثمرون عمل العبيد، وكذلك المزارعين الأحرار الفقراء.

لقد تواجدت العبودية فى جميع العصور القديمة للصين، ولكن اختلفت معاملة العبيد من عصر لآخر، حتى اندلعت فى العام الثامن الميلادى فى شمال الصين انتفاضة من الفلاحين، إلا أن انضمام فصائل من الأرستقراطين إلى الانتفاضة قد غير من اتجاهها لحدوث تعارض فى المصالح بين كبار الملاك من جهة، وصغار المزارعين والعبيد من جهة أخرى، وبالرغم من ذلك كسب العبيد بعض الحقوق من هذه الانتفاضة، فقد سمح للأرقاء أن تكون لهم أعمالهم واستثماراتهم الخاصة.

١٢ - انتفاضة سبارتاكوس :

كانت انتفاضة العبيد بقيادة سبارتاكوس، أهم حركة من نوعها، وأكثرها إثارة وشهرة على مر التاريخ.. اندلعت الانتفاضة فى عام ٧٣ ق.م. فى مدرسة

للمصارعين فى كابوا - أيطاليا، واشترك فيها حوالى مائتين من العبيد، وقد تم السيطرة على الانتفاضة ، ولكن تمكن جماعة منهم تبلغ حوالى ثمانين عبداً من الفرار واللجوء إلى منحدرات جبل فيزوف حيث انتخبوا سبارتاكوس قائداً لهم.

ولد سبارتاكوس فى تراسيا، وخدم فى القوات المساعدة الرومانية، وبيع كعبد بسبب فراره من الجندية، ولكنه كان منظماً، لديه مواهب عسكرية. . لم تبد روما فى بداية الأمر أى أهمية لفرار المصارعين ولكن مع تزايد أعداد العبيد المنضمين إلى سبارتاكوس وزيادة قوته العسكرية، عبأ الرومان جيشاً صغيراً قوامه حوالى ثلاثة آلاف من الجنود الذين احتلوا الممر الوحيد من جبل فيزوف، وحاصروا المتمردين، أظهر سبارتاكوس حينئذ عبقريته العسكرية، فضفر لرفاقه سلالم من أشجار الكروم لاستخدامها فى النزول على مؤخرة الجيش الرومانى الذى أصيب بهزيمة ، فزادت شعبية سبارتاكوس وكثر أعداد المنضمين إليه، فبلغ عدد جيشه بضعة آلاف من المقاتلين، وانتشرت الانتفاضة لتشمل كامل إيطاليا الجنوبية.

انفجرت الخلافات بين المتمردين لتعدد البلاد القادمين منها، واختلاف انتماءاتهم الوطنية، فمنى جيش سبارتاكوس بأول هزيمة على يد الرومان، تقدم سبارتاكوس نحو شمال إيطاليا فأحرز انتصاراً هائلاً جديداً على الجيش الرومانى أمام مدينة موتينا، فوصل إلى قمة مجده وشهرته وبلغ جيشه حوالى مائة وعشرون ألف مقاتل. . بلغ طموح سبارتاكوس مداه فاتجه نحو روما فساد الزعر على الرومان، وأدى ذلك إلى منح مجلس الشيوخ الرومانى لماركوس كراسوس، وهو سيد من نبلاء روما ومالك لأعداد كبيرة من العبيد، سلطات استثنائية لوقف سبارتاكوس، حاول سبارتاكوس الإبحار إلى صقلية بالاتجاه جنوباً ولكنه لم يوفق لعدم توافر سفن، كما دمرت العواصف الأطواف التى صنعها رجاله، فلحق كراسوس بسبارتاكوس، وحدثت المجابهة الحاسمة فى عام ٧١ ق.م. والتى انتهت بسقوط سبارتاكوس قتيلاً، وسحق ثورة العبيد الكبرى، وكان انتقام المنتصرين الرومان هو زرع كل الطريق من كابوا حيث بدأ التمرد إلى روما بستة آلاف من العبيد المصلوبين.

العبودية فى العصور الوسطى :

تقاسمت الدولة الإسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلادى مع الدولة البيزنطية فى احتلال دول حوض البحر المتوسط بالإضافة إلى شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس التى كانت تحت يد الدولة الإسلامية. لم يتلاش الرق فى القرون الوسطى، ولكن كنتيجة لانتشار الديانتين المسيحية والإسلامية، كان العبيد أحسن حالاً، فقد خففت الأديان من نير العبودية وسوء معاملة الأسياد للعبيد. فقد دعت هاتين الديانتين إلى التسامح وحسن المعاملة الذى شمل الجميع، فخير العباد عند الله أتقاهم. . كانت أوروبا فى ذلك الوقت فى عزله وانزواء تسيطر عليها ارستقراطية خالية من أى حضارة أو ثقافة مميزة. . إلا أنه ابتداءً من القرن الثامن الميلادى، أخذ التجار الفرنج فى التبادل التجارى مع الدول الإسلامية، فكانوا يبيعون فى الأسواق الإسلامية بعض مصنوعاتهم كالأسلحة والرقيق ، فيبيعون عبيداً وقعوا فى الأسر من البلدان الوثنية. . كانت تجارة الرقيق رابحة ولكنها كانت تجرى بتحفظ وكان مصدر العبيد فى أوروبا هو سوق النخاسة فى براغ، وصقلية وقبائل الخزر بتركيا.

كان نظام الاقتصاد الأوربى فى القرنين الأخرين من الألفية الأولى يعتمد على الثروة العقارية والإقطاعيات الزراعية. كان من المرهق لصاحب الأملاك الواسعة استخدام أو تشغيل عدد كبير من الأرقاء والعبيد، لعدم توافرهم فى أسواق النخاسة، ولهذا فقد فضل أصحاب الأملاك استثمار جزء من أملاكهم من خلال عبيدهم أو أحرار المزارعين، فكان الاستثمار يتم وفقاً لشروط معينة، وعقود مكتوبة حتى يضمن المالك السيد الحصول على مبلغ من المال سنوياً، بالإضافة إلى جزء من محصول الأرض، وشيئاً مما تنتجه العائلة المستخدمة من أشغال يدوية مثل قطع الأثاث أو الملابس، وكانت هذه الطريقة تؤمن لسيد الأرض أو مالك العقارات دخل سنوى ثابت، كما كان يضمن الحماية لأملاكه الواسعة والمتعددة. . كانت الأخلاق المسيحية تحظر استعباد المعمد أو المتنصر. . وكانت تعتبر تحرير العبيد عملاً يستحق الأجر والثواب، إلا أن المجتمع الأوروبى كان يقوم على الاسترقاق، شأن المجتمع الرومانى فى عهد الامبراطورية الرومانية المتأخرة.

فى هذه الحقبة، كان يتم جلب العبيد من البلاد الوثنية، وأصبح الإتجار بهم عملية رابحة، وفى مطلع القرن التاسع بلغ عدد العبيد فى ريف أوروبا حوالى عشرة فى المائة من مجموع السكان، يعمل السواد الأكبر منهم فى المزارع والحقول، وقد ساعد هذا الوضع فى التخفيف من الروابط التى كانت تشدهم بالسيد، بالرغم من الحق المطلق للسيد أن ينزل جميع أنواع العقاب أو العذاب على العبد وعائلته ونسله ولكن إذا استقر أحد من العبيد فى منزله الريفى الذى وهبه له السيد، فواجباته تخف نوعاً ما ، إذ ينحصر معظمها فى استثمار الأرض المقطوعة له، وكان بإمكانه توريث مدخراته إلى أولاده من بعده.

يرجع النظام الإقطاعى الزراعى فى أوروبا إلى القرن الخامس الميلادى، وبلغ هذا النظام ذروته وتأثيره على النظم الاجتماعية والسياسية ما بين القرنين الحادى والثانى عشر . . التزم الفرد الضعيف فى هذا النظام بتأدية خدمات للفرد القوى مقابل التمتع بحمايته، لم تكن علاقة سيد بعبد، ولكنها كانت علاقة سيد قوى بتابع ضعيف، نتج عن هذه العلاقة زيادة سلطة وثروة القوى، فى حين اطمئن الضعيف إلى الحماية له ولأسرته بتنازل – فى هذا النظام – المالك الصغير الضعيف عن أرضه، وأصبح مستأجرا يؤدى إيجاراً فى شكل خدمات أو سلع أو منتجات من الأرض التى يستأجرها، وبذلك كان النظام الاقطاعى من حيث أركانه القانونية عبارة عن نظام حل فيه إيجار الأرض محل ملكيتها . . كان الالتزام بين السيد وتابعه متبادلاً بالرغم من انعدام المساواة فى الواجبات والالتزام، كان التابع مديناً للسيد بواجبات الخدمة العسكرية والخدمة فى البلاط، وكذلك دفع مبالغ معينة فى أوقات متفق عليها، أما التزام السيد فكان يتمثل فى مد يد العون والحماية لتابعيه، ومراعاة العرف والمواثيق التى تحدد حقوق التابع وامتيازاته، وكان التابع يستطيع نظرياً أن يهجر الأرض التى يستأجرها وأن يرفض الخضوع للسيد المالك، إن كان التملك فى عهد الإقطاع ينصب عادة على الأرض، إلا أنه قد شمل أيضاً أى شى له قيمة مادية، مثل الحق فى تشغيل طواحين الغلال، أو جباية ضريبة العبور، أو استغلال مياه الرى، أو تولى وظيفة حكومية، سار نظام الإدارة الحكومية فى هذه العهود على نهج نظام إقطاع

الأرض، فأصبحت الوظائف الحكومية تورث كالأرض، واعتبرت الوظيفة ميراثاً أبدياً للفرد وأولاده من بعده.

أما عن الهند والصين وبلاد الشرق الأقصى الأخرى، فقد انتشرت الديانة البوذية فى الهند فى القرن السابع الميلادى تحت رعاية الامبراطور هارشا ، ومنها هاجرت إلى بلدان مختلفة فى شمال وجنوب شرق قارة آسيا ، كما نشطت التجارة بين الدولة الإسلامية الحديثة وبلاد الشرق الأقصى والأدنى وخاصة الهند والصين والجزر الأندونيسية . كان النظام الامبراطورى الإقطاعى هو الذى يحكم الصين واليابان ، ولكن بصفة عامة ، خففت الديانة البوذية التى انتشرت فى أنحاء هذه البلاد، بالإضافة إلى تغلغل الثقافة الإسلامية من قسوة العبودية وتسلط السادة الإقطاعيين عليهم.

أما عن القارة المكتشفة حديثاً أمريكا، فعند الغزو الأوروبى للمكسيك عام ١٥٢١م، كانت تقوم فى المدينة الرئيسية تينوتستيتلان حضارة الأزتيك التى كان يتمتع شعبها بدرجة كبيرة من الثراء.. كان مجتمع الأزتيك منقسماً إلى ثلاث طبقات، أولهما طبقة السادة الأشراف (تيكوتين) قليلة العدد، ثم الطبقة الوسطى المالكة للأرض (كالبولى) ، والطبقة الدنيا المعدمة ، بجانب الطبقات الثلاث وجد العبيد، من أسرى الحروب، والمدنيون الذين لم يتمكنوا من تسديد ديونهم، وأيضاً الأحرار الذين باعوا أنفسهم أو باعهم أهلهم بسبب الفقر، وكان هؤلاء العبيد يعملون لدى طبقة التيكوتين المكونة من الامبراطور وأسرته، والتجار والأثرياء، الذين كانوا يعيشون حياة مرفهة، ويحصلون على أرقى تعليم وتدريب لأطفالهم.

وفى الخلاصة ، بالرغم من الأديان لم تلغ نظام العبودية ولكنها أوصت بالمعاملة الطيبة للعبيد، فتحسن وضعهم وتم معاملتهم معاملة إنسانية، كما حثت الأديان على عتق الأرقاء إذا أمكن ذلك ، واستمرت العبودية ونظام الجوارى والسرارى فى دول الشرق الأوسط والشرق الأدنى تخدم فى المنازل وتسرى على السيد المالك.

العبودية فى العصور الحديثة :

أطل القرن السادس عشر على عصر جديد سمى بعد ذلك بعصر النهضة، فقد تم اكتشاف قارة جديدة غرب العالم القديم ، وامتازت هذه الحقبة بنهضة علمية وصناعية وأوروبية، وبدأت الاختراعات والأبحاث فى الفيزياء، والكيمياء، والفلك، والوراثة ... إلخ، على أيدى علماء مثل كوبرنيكس ، وجاليليو، ونيوتن، وفاراداى ، وداروين ، ومندل وعلماء آخرون، ثم لحقتها النهضة الفلسفية بعد قرن أو اثنين من الزمان على أيدى ديكارت، وهيجل، ونيتشه، وشبنهور، وماركس، وغيرهم من الفلاسفة، وفى الفن وجد مايكل أنجلو ودافنشى، كما وجد بيتهوفن وشوبان وموزار وغيرهم من العباقرة الموسيقيين. لقد تحول ركب الحضارة من الشرق إلى الغرب ثم استمر فى السير غرباً إلى الولايات المتحدة فى القرن العشرين.

اختلف عصر النهضة كلياً عن العصور الوسطى، ففى نظر بوركهارت جاء هذا العصر حصيلة تبدل جذرى فى المناخ الفكرى للشعب الإيطالى، وتميز عصر النهضة بطابع الطغيان القائم على القوة وفردية الإنسان، ومنه بزغ مذهب الفردية التى تقوم على شهوة المجد والتطلع إلى العظمة.. كما ساد فى هذا العصر الرغبة فى العلم واحترام الشخصية البشرية والبعد عن النصوص المقدسة والأفق المحدود للتفكير والتزمت فى الرأى.

وفى هذا العصر ظهرت البورجوازية الرأسمالية لتزاحم طبقة السادة النبلاء، ثم ترثهم فى القرون التالية.. اتسم البرجوازى بحب المغامرة، وحنكة الإدارة، وهو مفاوض لبق يجيد الحديث والمناقشة والإقناع، له عقلية منهجية، كل شىء عنده يجرى بحساب.. اعتمد ملوك أوروبا على الطبقة البورجوازية الجديدة التى كانت تسيطر على التجارة والصناعة وبالتالى على الثروة مما ساعد على قيام صراع بين طبقة السادة النبلاء الإقطاعيين ، ذوو المجد والنسب القديم، والطبقة البورجوازية الحديثة الثرية.. وتنافست الطبقتان فى الولاء للملك، وتقديم الخدمات له، مما ساعد على

تطوير الملكية المستبدة، خاصة فى فرنسا التى تعتبر نموذجا لهذا الاستبداد، فالسلطة المطلقة التى تمتع بها ملوك فرنسا، اعترف بها قانوناً كهبة من حق إلهى.

كان هدف رحلة كولومبوس البحث عن طريق آخر للوصول إلى الهند غربا، ولكنه اكتشف قارة جديدة فى نهاية القرن الخامس عشر. عجز الأوربيون فى استعباد السكان الأصليين لقارة أمريكا من الهنود، فاستوردوا عبيداً زنوجاً إلى المناطق الأمريكية الحارة، وقد وصلت قوافلهم الأولى إلى السواحل الأمريكية عام ١٥٠١. كان البرتغاليون السباقين إلى الإقامة على الشواطئ الأفريقية، فأنشأوا أسواقاً وموانىء لتموين السفن وللتجارة، ثم جاء بعدهم الهولنديين والأنجليز والفرنسيين.

باكتشاف أمريكا الشمالية والجنوبية فى نهاية القرن الخامس عشر تم إنشاء المستعمرات الأوروبية فى الأمريكتين فى القرون الثلاثة التالية، وقد أدى هذا إلى جلب آلاف من الزنوج من أفريقيا وسواحلها الغربية خاصة للعمل فى مزارع الأرض المكتشفة.. أصبح الرق تجارة واسعة ورائجة يملكها السيد الأبيض الذى اصطاد الزنجى الأسود من أدغال أفريقيا وشحنه كالحيوان عبر المحيطات ليعمل فى مزارع القطن فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة الأمريكية ، وفى مزارع القصب فى دول أمريكا اللاتينية ، فى نفس الوقت وبعد صدام طويل وعنيف، لم يستطع الرجل الأبيض استرقاء الهنود الحمر الذين آثروا العيش فى مستعمرات منعزلة خاصة بهم.

بدأت تجارة العبيد فى المستعمرات الأمريكية بواسطة تجار من البرتغال وأسبانيا، كما دخلت إنجلترا كمنافس فى هذه التجارة فى منتصف القرن السادس عشر والتى انتشرت بعد ذلك بواسطة التجار الأوروبيين خاصة من فرنسا وهولندا والدنمارك.. كان أول عبد زنجى يطأ الأراضى الأمريكية الجديدة فى عام ١٦١٩، أعقبه أعداد قليلة فى البداية، ومع التوسع فى استزراع الأراضى خاصة فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية فى منتصف القرن السابع عشر، زاد عدد الزنوج الذين تم جلبهم من أفريقيا، وتحولت بعض المدن فى السواحل الشرقية لأمريكا مركزاً لحركة وتجارة العبيد.

كونت طائفة الكويكرز فى انجلترا وأمريكا أول معارضة منظمة للرق، ففى عام ١٧١٦ حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة، وفى عام ١٧٨٣ كونوا جمعية لإغاثة وتحرير العبيد الزنوج فى جزر الهند الغربية، ولتثبيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا، وفى عام ١٧٨٣ تكونت لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق، وفى عام ١٧٨٩ بدأ وليام ولبرفورس حملته فى مجلس العموم لإنهاء التجارة البريطانية فى العبيد، وقد أقنع تجار الرقيق مجلس العموم مرة بعد الأخرى بتأجيل مشروعه، فلم يصدر المجلس القانون إلا عام ١٨٠٧، وهو قانون يحرم على أى سفينة أن تحمل عبيدا من أى ثغر فى الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧، أو لأى مستعمرة بريطانية بعد أول مارس من عام ١٨٠٨.

كانت الدنمارك أول دولة تلغى تجارة العبيد فى عام ١٧٩٢، تلتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى عام ١٨١٤، ثم سنت معظم الدول الأوروبية القوانين، أو دخلت فى معاهدات تحرم نقل العبيد، فأدى انخفاض العرض إلى تحسين أوضاعهم وظروف معيشتهم من ناحية السيد المالك.. حررت فرنسا عبيدها عام ١٨٤٨ ثم لحقتها هولندا فى عام ١٨٦٣، كما تزامن تحرير جمهوريات أمريكا الجنوبية لعبيدها وقت إنشائها، أما البرازيل قد ألغت الرق عام ١٨٨٨، وقد وصل عدد العبيد الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٨٦٥ ، وهو عام الإلغاء النهائى للعبودية حوالى أربعة مليون عبد.

كان الرق فى أمريكا اللاتينية أقل استمرارا بالنسبة للرق فى الولايات المتحدة الأمريكية وجزر الكاريبى، فقد أعتق عدد كبير من عبيد المستعمرات الأسبانية والبرتغالية. جاء فى كتاب "الغرب والعالم - تاريخ الحضارة" للمؤرخ الأمريكى كافين رايلى: «كانت فى أمريكا اللاتينية عدة وسائل يحرز بها العبيد الحرية.. فقد كانوا يشترونها بالخروج إلى العمل أيام الآحاد، أو أيام العطلات البالغ عددها خمس وثمانون يوماً فى التقويم الكاثوليكى. وكان من حقهم فى كوبا أو المكسيك أن يعلنوا بثمن شرائهم ، فيقومون بدفعه على أقساط، وقد أصبح هذا عادة واسعة الانتشار، ولاسيما فى كوبا.. فكان العبد الذى يبلغ ثمنه ٦٠٠ دولار يشترى حريته بسداد ٢٤

قسطاً تبلغ قيمة كل منها ٢٥ دولاراً، ويسمح للعبد بالانتقال من منزل سيده بعد سداد القسط الأول».

وكانت هناك وسائل أخرى لتحرير الرقيق فى أمريكا اللاتينية ، فقد أعتق سيمون بوليفار آلاف الرقيق فى فنزويلا وكولومبيا عندما انخرطوا فى الجيش فى حروب الاستقلال، كما أعتق الكثير من الرقيق الذين انضموا إلى جيوش البرازيل والأرجنتين . . وكانت كوبا تصدر قرارات دورية يتم بموجبها عتق الرقيق الذين يفرون إلى شواطئها ويعتنقون المسيحية تلقائيا. . كما كان من سلطة القاضى أن يحكم بإعتاق العبد الذى وقع عليه عقاب ظالم، وكان من حق الرقيق البرازيلى إذا أنجب عشرة أطفال أن يطالب بحريته شرعا، وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت غالبية الأمريكيين الأفارقة فى معظم البلدان الواقعة جنوبى الولايات المتحدة الأمريكية، لا هم بالسود ولا بالعبيد. . على عكس ذلك كانت المستعمرات البريطانية تفترض بصفة آلية، أن كل أسود أو داكن البشرة من أصل أفريقى هو عبد، وكانت تفرض ضرائب باهظة - تفوق أحياناً قيمة العبد - على عمليات تحرير العبيد.

كانت القوانين فى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة الأمريكية تنص على أن جميع الزنوج أو المهجنون الموجودن أو الذين سيوجدون وكل نسلهم وذريتهم، المولودين منهم والذين سيولدون، هم بموجب القانون من العبيد، وسيظلون إلى الأبد عبيداً بشكل كامل. . حتى القلة من العبيد المعتقين كانت ترغم فى كثير من الأحيان على العودة إلى الرق إذا لم يتمكن العبد من سداد دين أو غرامة، وكانت ولاية فرجينيا تلزم العبد المعتق بمغادرة الولاية فى مدى سنة وإلا يتم بيعه مرة ثانية.

كان الإنجاز الهام فى النضال ضد العبودية هو تبنى جامعة الدول (League of Nations) عام ١٩٢٦، لميثاق أو المعاهدة الدولية للعبودية (Interntional Slavery Convention) والتى حرمت تجارة العبيد كما ألغت نهائياً كل أشكال العبودية والرق، كما تم إعادة التأكيد على هذه المعاهدة بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان

(Universal Declaration Of Human Rights) من قبل الأمم المتحدة (United Nations) عام ١٩٤٨، وفى عام ١٩٥١ تكونت لجنة نابعة من الأمم المتحدة، لعمل تقرير عن نظام العبودية، وانتهى تقرير اللجنة إلى الانخفاض الحاد فى ممارسة العبودية ما عدا عدة آثار خفية ما زالت متبقية لنظام العبودية فى أماكن متفرقة من العالم، ومع هذا فقد رأت اللجنة أنه مازال يوجد أشكال من الاستخدام الشبه استعبادى لعدد كبير من الناس فى بعض الدول، وتشمل هذه الأنواع من الاستعباد أو شبه استعباد: عبودية الأرض (Serfdom)، وتسخير العمال (Peonage)، والتعسف فى استعمال السلطة بالنسبة للأطفال، وزواج المرأة بدون رضاها.

كنتيجة لتوصيات لجنة الأمم المتحدة تم عقد مؤتمر دولى فى جنيف بسويسرا عام ١٩٥٦، شارك فيه واحد وخمسون دولة.. تم فى هذا المؤتمر إصدار معاهدة مكملة لمعاهدة ١٩٢٦، لإلغاء العبودية وتجارة العبيد وإلغاء جميع القوانين الخاصة بممارسة كل أنواع العبودية أو الشبيهة لها.. كما أدانت المعاهدة الجديدة كل الأعمال التعسفية المماثلة للاستعباد والتى جاء ذكرها فى تقرير لجنة الأمم المتحدة.

كتب علماء الحملة الفرنسية فى بداية القرن التاسع عشر عن الرق فى مصر فى كتاب "وصف مصر"، أنه كان يوجد نوعاً من الرقيق، السود من وسط أفريقيا وكان يتم جلبهم إلى مصر عن طريق القوافل، والبيض ويأتون من أقاليم أسيا المجاورة للبحر الأسود، وكان العبد فى مصر مكملاً لثروة سيده الذى كان يستطيع أن يبيعه أو يبادل به أو يعتقه، وليس للعبد أن يمتلك شيئاً خاصاً به، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده.. لم يتمتع العبد فى مصر بأى حق مدنى فكان يعتمد فى كل أموره على إرادة سيده.. وكان العرف فى مصر خصى العبيد الذكور خاصة من كانوا يعملون فى المنازل فى خدمة الحريم، وكانت عملية الخصى تتم بطريقة غير إنسانية ببتر العضو الذكرى للعبد، فكان يموت بعضهم أثناء أو بعد هذه العملية.. كان ما يفرض على العبد من واجبات تتعلق فقط بالخدمة المنزلية أو يقوم بأية أعمال أخرى تتصل بشخص سيده، لكنه كان بعيد عن الزراعة وعن الأعمال الشاقة، ولعل أشق عمل يكلف به العبيد هو أن يعهد إليهم سادتهم بالعناية

بخيولهم، وحسب قول علماء الثورة الفرنسية كان العبيد بصفة عامة يعاملون فى مصر بلطف، وغالباً ينتهى بهم الأمر إلى العتق خلال بضع سنوات أو عند موت سيدهم.

كان العبد الأبيض يعتبر عضواً من أعضاء الأسرة المصرية، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته، ويزوجه من ابنته، ويهيىء له حياة طيبة، أما الرقيق الذين كانوا فى خدمة البكوات أو كبار ضباط المماليك فإن حظهم أكثر بريقاً، حيث أن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيداً، فإنهم بدورهم اعتنوا بالعبيد وهيئوا لهم تدريب عسكرى مناسب ليشكلوا بعد ذلك جيش المماليك. . أما الإماء البيضاوات فكن يتمتعن باعتبار خاص، ذلك أنهن عادة ما يصبحن زوجات السادة من البكوات أو المماليك. كانت الأمة تباع بثمن أعلى من العبد الذكر، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين الأمة وأنجبت طفلاً، فإن السيد لا يستطيع بيعها، إذ تصبح الأمة فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها، وعندما تموت الأمة يصبح ابنها شرعياً ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة، وفى حالة إذا ما أراد السيد أن يتخذ من الأمة زوجة شرعية فكان عليه أن يعتقها أولاً. . وكان العبد المعتوق يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى سيد آخر قبوله.

جاء فى كتاب وصف مصر أن على بك الكبير أعتق كثيراً من مماليكه ودفعهم إلى مراتب البكوات، ومع ذلك فقد كانوا عندما يأتون لزيارته، يظلون واقفين فى خنوع، ولا يجلسون أمامه إلا إذا دعاهم لذلك، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم. . كانت عملية العتق تتم فى مصر إما شفاهة من السيد أو تحرير وثيقة بالعتق. . وكان العرف فى مصر أن يرث العبد جزء من ثروة سيده إذا مات دون ذرية ترثه، أما الأمة التى كان من واجبها الاستجابة لجميع رغبات سيدها، تستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها. . عامة كان العبد فى مصر أحسن حالاً وأوفر حظاً من العبيد فى أجزاء أخرى من المعمورة، وذلك لأن طبيعة المصرى لا تميل إلى السيادة والعنف ، فكان المصرى الحر كما جاء فى كتاب وصف مصر: « يحمل بين جوانبه روحاً منكسرة تشى عن نفسها فى كل

حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم، وعندما تباح له أن يدرج فى مصاف الأثرياء، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأتمرون بأمره بوطأه استعلائه وتحكمه ، وذلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها ولا يستحى الفلاح أو الحرفى - مهما كانت مهنته - من أن يستجدى، حيث لا يهمهم كثيراً ما سوف يقال عنهم وعن حالهم، بل أنهم يفعلون كل ما فى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الإمكان» .

كان الصيد وسباق الخليل من هوايات المماليك المحببة ، وتسليتهم المفضلة، فقد كان يتم تدريبهم منذ الصغر على فنون الحرب وأساليب الصيد، واعتبروا ركوب الخيل والقنص من الرياضات السامية، تهذب الخلق وتقوى القدرة على تحمل الصعاب، وتسرى عنهم فى أوقات السلم التى يتوقف فيها القتال. . وفى أثناء الصيد تخلص المملوك قطز من المنصور على مستغلاً غيبة أكثر الأمراء من مماليك أبيه، وفى أثناء الصيد أيضاً قتل الأمير بيبرس البندقدارى السلطان المظفر قطز بعد أن هزم التتار فى معركة عين جالوت فى القرن الثالث عشر . . حرص المماليك على اقتناء الحيوانات والطيور بغرض الزينة والاستعانة بها فى عملية الصيد، فاهتموا بتربية الخيول، وكلاب وصقور الصيد، وكذلك ترويض الحيوانات المفترسة.

شغف المماليك بسماع الموسيقى والغناء، وأغدقوا عليهم بالعطايا والهدايا، مما جعل لهذه الفنون أهمية كبيرة فى ذلك العصر، فانتشر الاهتمام بالطرب ليعم معظم الشعب المصرى. . بالرغم من إظهار بعض السلاطين المماليك امتعاضهم، واضطهادهم لانتشار هذه الظاهرة ، فإن الناس استمروا على اهتمامهم بالطرب. . استمتع المماليك أيضاً بالرقص ، وجلبوا الراقصات اليهوديات والأرمن وضموهن إلى الحاشية، فاكتملت دائرة الطرب والاستمتاع بمباهج الحياة الذى أصبح جزء من ثقافة الشعب المصرى فى عصر المماليك، لقد ساد المملوك الأجنبى على الحر المصرى، واستمتع المملوك بلذات الحياة ، وإن كان عامة الشعب قد عاش فى مستوى اجتماعى ومادى أقل، إلا أنه قد نال أيضاً جزءاً من هذه المباهج لما لطبيعة المصرى من ميل للبساطة والانشراح، لقد كان للطرب أثر نفسى إيجابى للتنفيس عن معاناة الشعب المصرى، وللتخفيف من حالة البؤس والخضوع التى عاش فيها.


فلسفة القــوة

فلسفة القوة

فى علم الفيزياء يحتاج ضغط المادة فى شكلها الصلب أو السائل أو الغازى إلى قوة ضاغطة، فيصغر حجم المادة وتزيد كثافتها، وعندما تحرر المادة من الضغط تتولد طاقة تعادل الطاقة التى بذلت فى عملية الضغط . . إذا أحدث الضغط قوة صغيرة نسبياً ولكن على مدى زمن طويل، فإن الطاقة المولدة نتيجة التحرر من الضغط تعادل تراكم القوى الصغيرة على المدى الزمنى الطويل، وهذه الطاقة المحررة ستكون ذات قوة هائلة بالنسبة لقوة الضغط نظراً لأن عملية التحرر تستغرق وقتاً قليلاً.

لقد بدأ الكون بكرة صغيرة فى حجم البرتقالة شديدة الكثافة والانضغاط، شديدة الحرارة، وتحوى هذه الكرة على بلايين البلايين من الكيلو جرامات من مواد الكون، وحدث الانفجار العظيم (Big - Bang) منذ حوالى خمسة عشر بليون سنة، وانتشر الكون فى الفراغ اللانهائى وتناثرت المكونات، وانخفضت درجة الحرارة نسبياً وتكونت النجوم والكواكب ، وفى التاريخ المتأخر للكون بدأت الحياة على ظهر كوكب الأرض.

الإنسان أيضاً صورة أخرى من صور القوى والطاقة، الضغط والتحرر، السخونة والبرودة، يضغط على الإنسان قوى الانفعال والألم، ويؤثر فيه تفاعلات كيميائية مستمرة منذ الولادة وحتى الوفاة، يعيش الإنسان بغرائز متوارثة فى جيناته، وتجارب متراكمة طوال سنوات عمره، والألم الانفعالى هو القوة الضاغطة على الإنسان، وكلما زادت القوة وزاد مداها الزمنى كلما زادت الطاقة الكامنة داخل الإنسان، وبمقدار استيعاب الإنسان لهذه الطاقة من الألم وقدرته على تحملها، تقيم قوته الذاتية ومرتبته الإنسانية بين البشر، لقد تحدث عبدالرحمن بدوى فى هذا المجال فى كتابه عن الفيلسوف الألمانى فريدرش نيتشه رائد فلسفة القوة والإنسان الأعلى: «الألم لازم للبطل لأن الحياة ليست خضوعاً - وبمقدار استعداد المرء للتألم، تكون درجته فى سلم التصاعد الإنسانى، فأقدر الناس على تحمل الألم، وأسرعهم

إلى خلقه والإقبال عليه، أرفعهم فى درجة الإنسانية، والمعرفة تسمو والشعور يعلو، بالقدر الذى يكبر به الألم ويزداد التألم.. فإذا استطاع المرء إذاً أن يعانى أكبر مقدار من الألم، وأوفر نصيب من التألم، ارتفع إلى درجة جديدة وطور آخر، هو دور السرور الصادر من أعمال الألم، هو القمة العليا التى يصل إليها المرأ بعد أن يكون قد صعد جبلاً من الآلام ومر بأشد الصعوبات واقتحم أقوى العقبات وأبعدها عن الهزيمة والتسليم».

لخص نيتشه فلسفته فى قوله: «كى نجنى من الوجود أسمى ما فيه، عش فى خطر»، ما هو الخطر، هل هو الشىء الضار لأنفسنا والنافع للآخرين، أم هو الشىء الضار لأنفسنا وللآخرين، أو هذا الخطر هو الذى يحرر طاقتنا الانفعالية من داخلنا فنعيش الحياة بكل ما فيها من تضاد وتباين، من شد وجذب، من انتصار وهزيمة، من حب وكره، نعيشها بكل ما فيها من آلام وأحزان، ومن سعادة وشقاء، نذوب فى مشاكلها ، نصارع ونقاوم، من أجل أن نحى سنوات عمرنا فى أعلى درجات الإنسانية بما تحتويه هذه الكلمة من مشاعر مختلفة وانفعالات متعددة. نتفاعل مع الآخرين بسلوك إنسانى ليس له حدود إلا ضمير منزه يحكم مابين الشر والخير، وعقل ذكى يفرق ما بين الضار والنافع، وروح سامية تهدينا إلى السلام مع أنفسنا ومع المجتمع والطبيعة.. واقع نعيشه بكل ما فيه من تناقضات، وقوى مادية نتأثر بها ونأثر فيها.

وضع الإنسان القيم قبل نزول الأديان السماوية، فوصف بعض الأفعال بالخير والأخرى بالشر، وفرق الإنسان بين الباطل والحق، ووضع مقاييس ومعايير للجمال والقبح، للكرم والبخل، للشجاعة والتخاذل، وتفلسف الإنسان عندما شعر بالألم والمعاناة وعندما عاش فى فراغ وقتى بعد إشباع حاجاته الأولية. اختلفت القيم والمعايير الموضوعة من فرد لآخر ومن مجموعة لأخرى، وتداخلت المصالح والأهواء مع ضمائر غريزية .. اختلفت قيمة الشىء باختلاف الناس فكان النزاع والصراع ونشبت الحروب، فما أراه حق لى قد تراه أنت باطل، وما قد أراه أنا جميل قد تراه أنت قمىء، لقد اختلفنا فى قيمة الأشياء المادية كما اختلفنا فى تفسير المشاعر

والسلوك، فالصراع والصدام يمكن وصفه بالشجاعة من بعض الناس كما يسمونه آخرين بالتهور، الاستسلام والمهادنة قد يوصفا أحياناً بالخنوع وأحيانا أخرى بالسلام. . بدأ الصراع منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا لا يقر طرف من أطراف النزاع بأنه المخطأ، للخطأ مبررات كثيرة تبدأ بالحاجة المادية من طعام وشراب، ومسكن، وملبس، وشهوات غريزية، وتنتهى بالرد على إساءة أو الرد على عدوان.

بالرغم من أن عقيدة زرادشت قد جاءت من بلاد فارس فى العصور القديمة ووصف العالم بأنه صراع دائم بين الخير والشر، فقد أوحت هذه العقيدة لنيتشه بفلسفة القوة وبالإنسان الأعلى، فهو القائل: حيث توجد حياة، توجد أيضاً إرادة، أرادة قوة لا أرادة حياة.

فى تعريف نيتشه للخير على لسان زرادشت نيتشه :

ما الخير ؟ . .هو ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها.

ما الشر ؟ . . هو كل ما يصدر عن الضعف.

ما. السعادة ؟ . . هى الشعور بأن القوة تنمو وتزيد، وأن مقاومة ماقد قضى عليها. لارضى، بل قوة أكثر وأكثر، لاسلام مطلقا، بل حرباً، لا فضيلة بل مهارة. الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا، هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية.

أى الرذائل أشد ضرراً ؟ . . الشفقة على الضعفاء العاجزين.

كان نيتشه عدو للمساواة، فالأقوياء لهم أخلاقيات مختلفة عن أخلاقات العبيد الضعفاء، وكان يرى أن كل جماعة لها قاموسها الخاص بتعريف الخير والشر، تشكل على مدى سنوات طويلة عبر التاريخ من تراكمات ثقافات وتراث وأساطير توارثتها الجماعة، إذا كانت المبادئ العامة لتعريف الخير والشر واحد مثل: لا تقتل، لاتسرق، لا تزنى، . . . ، ساعد المحتاج ، اعطف على المسكين، . . إلى آخره، فإن مواقف التطبيق قد تغير من التطبيق الفعلى لمبادئ الخير والشر، من هو المحتاج الذى يجب مساعدته، هل هو الشحاذ الذى يتسول فى الطريق أو عفيف اليد، وكيف يكون

القتل خطأ أو دفاع عن النفس، هل من يسرق لسد جوع الموت يستحق العقاب، مواقف كثيرة وتفسيرات أكثر، فسنت القوانين وظهر قطاع كبير من القضاة والمحامين ورجال النيابة، كل إنسان يفسر الخير والشر على هواه، قاصداً أو جاهلاً. . ينبع من هذا الاختلاف صراع لإثبات الذات، أنه نوع من الكبرياء الصادق أو الكاذب ، لكنه فى الحالتين يؤدى إلى عناد وصراع.

يرى الفيلسوف العربى القديم ابن سينا أن الشر بالنسبة إلى الأخلاق إنما هو شر بالقياس إلى السبب الفاعل له، أو بالقياس إلى قابله، أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع من فعله، فالظلم يصدر عن قوة تصبو للغلبة والسيطرة، وهى ما تسمى بالقوة الغضبية، وكمال هذه القوة فى التغلب، وهى خلقت لتكون متوجهة نحو السيطرة ولهذا تطلبها وتسعى لها، فهذا الفعل الظالم (بالنسبة للآخـــر) هو خير للفاعل، ولو قصر الفاعل فى تعظيم القوة لكان شراً بالنسبة له، فإذا كان الظلم شر للمظلوم، فإنه غاية الكمال بالنسبة للقوة الغضبية عند فاعله. لقد كانت فلسفة ابن سينا تنصب فى هذا المجال على أن الشر أمر لا مفر منه فى النظام الكونى القائم، ولكنه يرى أيضاً أنه بالرغم من انتشار الشر فبالقياس إلى الخير الموجود يعتبر طفيفا.

يستمد النبات حياته وينمو من الهواء والماء وأسمدة طبيعية وكيميائية يمتصها من الأرض، والحيوان أيضاً يستمد حياته أولا بالتغذية الطبيعية من الأم فى الصغر، ولكن ينمو يتغذى على النباتات والحيوانات الأخرى، ولكى يقوى ويسود يجب أن يصارع حيوانات أخرى أو حتى الإنسان.

كذلك العنصر البشرى فلكى يحيا السيد يجب أن يصارع ، فالحياة كما قال نيتشه هى إرادة استيلاء على الآخرين، هى إرادة استعباد واستغلال ، إرادة الاقتناء والزيادة فى الاقتناء، لا تسير الحياة بدون مقاومة من الآخرين ، إذاً لابد من استخدام القوة لقمع هذه المقاومة، فالحياة كفاح ونضال ، قدر نعيشه طالما نسعى إلى العلى والارتقاء، ونطلب السيادة والريادة.

الحياة صراع وكفاح دائم فهذا قدر الإنسان منذ الخليقة، صراع مع الذات، ومع الطبيعة ، مع المجتمع الذى نعيش فيه، نريد تلبية احتياجاتنا الأولية فإن نجحنا نطمع فى المزيد، نسعى نحو الرفاهية والاستمتاع بوقت الفراغ، فإن تحقق ما نسعى إليه نطمع فى المزيد وما أكثر طمع الإنسان، ننشد السيادة واستعباد الآخرين ، ونتطلع إلى الصعود والرقى، والوصول إلى السلطة، والحصول على المال والجاه، إن فشلنا فالمبررات كثيرة وكلها خارجة عن إرادتنا، وإن انتصرنا فنحن الأقوى والأذكى، نستحق ما حصلنا عليه وان كان غير شرعى أو كان من غير ذى حق.

يواكب الكفاح مقاومة من الطرف أو الأطراف الأخرى التى نخوض ضدها الصراع، وينتج من المقاومة جراح عضوية وانفعالات نفسية فيتولد الألم، هذا الألم الذى كتب عنه نيتشه :« إن إرادة القوة تنزع نحو المقاومات، ونحو الألم، وفى جوهر كل حياة عضوية إرادة ألم»، ومع زيادة ألم الإنسان تزداد قوته التى يستمد منها إرادته للوصول إلى الأعلى، والعلو نسبى لكل إنسان ولكل زمان، كان اقتناء الخيل أو السلاح من سيوف ونبال مطمع كبير فى الأزمنة الغابرة، فأصبح اقتناء السيارات هو مطمع الإنسان من عقود مضت أما الآن فإن الإنسان الطموح يصبو إلى تكوين الشركات العملاقة وامتلاك الطائرات والقصور، ليس فى مكان واحد بل فى جميع أنحاء كوكبنا حتى يستمتع بجميع فصول السنة وحتى لا ينتابه ملل الرتابة والتكرار.

كلما اشتد ألم الإنسان واشتدت انفعالاته ، كلما زادت قوته وكثرت إنجازاته، واختراعاته، وابتكاراته، فلم يكتب الشعراء أو الكُتّاب أمثال تولستوى أو شكسبير أشعارهم ورواياتهم بدون انفعال ومعاناة داخلية، ولم يؤلف بيتهوفن أو شوبان أو غيرهم من عظماء الموسيقى السيمفونيات الرائعة بدون انفعال داخلى وشعور بألم، ولم ينحت أو يرسم مايكل أنجلو أو ليوناردو دافنشى أو فان جوخ وهم سعداء بحياتهم، قانعين وراضين عن أنفسهم وعن من حولهم.. أعظم الاختراعات والاكتشافات والتطوير مثل بحوث العمليات والإنترنت، تمت أثناء الحروب، ان قطاع كبير من الصناعة قائم على الأسلحة والأجهزة ومعدات الحروب، فالصراع والصدام ليس فقط من أجل البقاء بل من أجل السيادة والزيادة ، من أجل السمو

والعلو، ومن أجل الرفعة والقوة، حتى تسير قيمة الإنسان والحضارة الإنسانية إلى أعلى وبتطور دائم ، لا نقول إلى الأحسن، فالأحسن نسبى يختلف تقيمه وتقديره، من إنسان إلى إنسان، ومن زمان إلى زمان. فالإنسان القوى يبحث عن أنداده من الأقوياء ، يصادقهم ويسامرهم، يصارعهم وينازلهم، مباراة بين قوتين متساويتين تقريباً، منافسة قوى من أجل الارتقاء والتطور. . أما العبد الذليل فالقوى يتركه لانه زبالة الإنسانية، لا يستحق منا مجرد إلتفاتة، هذه هى فلسفة القوة فى عالم متعدد القوى، لا يحيا فيه الحياة الإنسانية إلا الأقوياء، أما العبد فيجب ألا يسمى بالإنسان بمجرد أن رضى بالاستسلام والعبودية.

من منطلق الفردية والاستقلال وميل السلوك الإنسانى إلى المزيد من السلطة والنفوذ، قامت فلسفة الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز فى القرن السابع عشر، على أساس أن الإنسان أنانى بطبعه يحاول قدر استطاعته أن يزيد من ثروته أو سلطته أو نفوذه إلى الحد الأقصى، فالإنسان فى رأى هوبز: « يهدف إما إلى الكسب أو المجد، أى أن الدافع وراء سلوكنا ليس محبة رفاقنا بقدر ما هو حبنا لأنفسنا» ، كما أن القيم والأخلاق والأخلاقيات - فى فلسفة هوبز - ليس لها معنى إلا فى إطار إشباع رغبات الإنسان : «الشرف هو أى شىء نملكه، أو أى شىء نفعله، أو أى صفة نتصف بها، ويكون دليلاً على القوة وعلامة عليها. فالسيطرة والانتصار أمران شريفان، لأننا نحصل عليهما بالقوة، والثروات شريفة لأنها هى القوة». كما كان رأى هوبز أن خير الناس هم تلك الآلات العقلية التى تستطيع أن تحصل على أقصى ما يمكن من الآخرين من خلال عملية المساومة، ولما كان كل شىء له قيمة وبالتالى له ثمن فإن خير الناس هم الذين يستطيعون البيع بأغلى الأسعار، والشراء بأقل الأسعار، حتى تزيد ثروتهم وعليه زيادة قوتهم.

كما يوجد الإنسان السيد وخادمه العبد، توجد الدولة القوية ذات السيادة، والدولة الضعيفة دولة العبيد، وبالتأكيد تتكون دولة العبيد من مجموعة العبيد وبعض الأسياد إن وجدوا، فهى دولة تتميز بالتخلف والخنوع، كما تتميز بانهيار روحها

المعنوية وتفكك الروابط بين أعضاء مجتمعها، أما الدولة القوية ذات السيادة العسكرية والاقتصادية فهى دولة مجموع الأقوياء، وما دام الجميع أقوياء فكلهم تقريباً متساويين، يعيشون فى حرية، أى دولة ديمقراطية ليبرالية، دولة لا تعيش فى تخلف أساطير الماضى العتيق ولا تتغنى بحضارة انتهت منذ آلاف السنين، فالزمن لايعود، والدورات التى هى إحدى سمات الكون هى دورات مركبة على خط اتجاه عام يشير إلى أعلى، فلم يندثر ما اكتسبناه من الحضارات القديمة، ولن يفنى ما اخترعناه وطورناه فى حضارتنا الحالية.

فى كتابة (نهاية التاريخ) كتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما: « ان المجتمعات البشرية فى سلوكها الدولى تميل إلى التشبه بالسيد عند هيجل الذى يسعى إلى نيل الاعتراف ، أن دولاً معينة تسعى إلى ما هو أكثر من مجرد الحفاظ على الذات، فهى كالأفراد الثيموسيين تسعى إلى نيل الاعتراف بقدرها أو كرامتها على أسس قوامها الأسر الحاكمة، أو الدين أو القومية أو الأيدولوچية، ثم تضطر دولاً أخرى إما إلى الإذعان أو الدخول فى حرب، وكما أن تاريخ الإنسانية بدأ بمعركة دموية من أجل المنزلة، فإن الصراع الدولى يبدأ بصراع بين الدول من أجل نيل الاعتراف، وهو المصدر الأصلى للأمبريالية»، فالصراع هنا صراع قوى إثبات الذات ونيل الاعتراف، ولكن لا ننسى أيضاً العائد المادى والاقتصادى لنشوب الحروب واستعمار الدول، فكثيراً من المنازعات والحروب وراءها شركات عملاقة لتصنيع السلاح ومستلزمات الحروب، ونظرة سريعة لحروب الخليج فى التسعينيات وفى بداية الألفية الثالثة تثبت لنا أنه وإن كانت بداية الحرب إثبات سيادة دول أو عملية تحرير إلا أنها تحولت قبل أو بعد ذلك إلى حسابات للمكسب والخسارة، وتخطيط للحصول على الأموال. فى أبريل ٢٠٠٣ أثناء الحرب الأنجلو أمريكية / العراقية ظهر فى وسائل الإعلام بعض الصواريخ التى أسقطت على بغداد مدوناً عليها تاريخ الإنتاج ١٩٩٢. كان من الحكمة للنظام العسكرى الأمريكى التخلص من هذه الأسلحة التى كادت أن تنتهى صلاحيتها لإنتاج جيل جديد متطور من الأسلحة ، فتنتج المصانع وينتعش الاقتصاد الأمريكى على حساب شعب عانى من حكم ديكتاتورى . ولكن يحسب على

الشعب العراقى أن البعض منه قد رضى وساعد فى استمرار هذا النظام بالرغم من موت مئات الآلاف الذين رفضوا أن يحيوا عبيداً فى ظل نظام الطغيان.

العدالة هى عدالة القوة، والقيم هى قيم القوى، هل يستطيع ما تبقى من الهنود الحمر أن يطالبوا بوطن على أرض الولايات المتحدة الأمريكية كما طالب وخطط وصارع وانتصر الشعب اليهودى لإقامة دولته على أرض الميعاد، البون واسع بين الحالتين ، فالهنود الحمر هم الآن جماعات متناثرة ضعيفة أمام دولة قوية عسكرياً واقتصادياً، واليهود الآن قوة عسكرية واقتصادية استطاعت أن تكسب سياسياً وثقافياً قوى غربية أخرى بجانبها، ضد دول ضعيفة. الفرق هو الإرادة التى تدعمها الدراسة والتخطيط، والفرق أيضاً هو العقل الذى وهبه لنا الله تعالى فاستعمله البعض بحكمة واستغنى عنه البعض الآخر، الفرق واسع بين من يثير فى نفسه إرادة القوة وبين من يثير فى نفسه شهوة الجسد، والفرق كبير بين الحرية والديمقراطية وبين الديكتاتورية والاستبداد والطغيان.

الضعيف يطالب بالعدالة، والقوى له معايير للعدالة مختلفة عن عدالة الضعيف، قد يرضى الضعيف بأنصاف الحلول أو قد يرضى بما يمن عليه القوى من نفاياته وبواقى رفاهيته، فسياسة الضعيف هى التساهل والتسامح ومساومة المغلوب على أمره، أما سياسة القوى هى ما لا يقتلنى يزيدنى قوة، فهى سياسة ناشئة من الخوض فى المخاطر، وفى هذا المجال يقول نيتشه: « إن الأسباب التى تؤدى إلى جعل الضعاف من الناس صغاراً حقراء، هى عينها التى تدفع الأقوياء إلى العظمة والارتقاء».

الموت حقيقة ثابتة، ومن الأجدى ألا نعيش حياة طويلة ومملة، حياة مليئة بالرتابة والسأم يسودها السلام والطمأنينة وانتظار ما يمليه علينا الأسياد ونسميه انتظار القدر، فلتكن الحياة قصيرة ولكن خصبة، مليئة بالمخاطر والصراع، الضعيف هو من يخاف الموت، أما القوى فهو يرحب بأى تغير فالرتابة عنده بؤس والسكون عنده شقاء.

طالب نيتشه بأحقية الإنسان الأعلى أو الإنسان الممتاز (Super Man) أن يتبؤ المكانة الجديرة به فى أعلى السلم التصاعدى أى (فوق المنصة) ليسود الآخرين، فدعى إلى الفردية التى تقدم الفرد على المجموع طالما أن هذا الفرد قوى وذكى ومتفوق على الآخرين، أن الفرد فى رأى نيتشه هو (الذى تحيا فيه الإنسانية وفى غيره لا يمكن أن تحيا)، ليس الفرد السلبى المنعزل عن المجموع بل الفرد الذى يقود المجموع، هذا المجموع الذى يجب أن يسير خلف الإنسان الأعلى تاركاً له مسافة من التقدير والاحترام. . لا يوجد مساواة بين الناس، فطبيعة هذا الكون هى التباين بين الأفراد، والطبقات بين الجماعات، ولولا هذا التفاوت والتباين لما وجد للنظام الإنسانى معنى، فإن ساد العدل والمساواة والحب فسيتحول هذا النظام إلى نظام كئيب سمج، رتيب وممل، فصراع الفروق هو الذى يعطى للمنتصر لذة وسعادة عند الانتصار، كما يعطى للمهزوم أملاً فى الصراع القادم، كما يعطى هذا الصراع لكل من المنتصر والمهزوم حافز ليستمر المنتصر فى انتصاره ويطور المهزوم من نفسه من أجل الانتقام.

نعود إلى ما كتبه نيتشه عن الإنسان الأعلى: « يحلق تحليقاً حراً دون خوف ولا وجل فوق الناس والأخلاق والقوانين والتقييم التقليدى للأشياء. . يجب ألا يتعلق بشخص ما حتى لو كان هذا الشخص أحب الأشخاص إليه. . فكل ارتباط قيد وكل تعلق سجن، لا يتعلق بوطن معين ولا بأى نوع من أنواع الشفقة أو العطف». . فالإنسان المتميز لا يبالى بفضائل أو معايير الآخرين، فقيمه ومعاييره هى التى تسود. . فهو كما رسمه نيتشه: « إن هذا الإنسان الأعلى هو الذى يحدد معتقدات العصر بأكمله، ويعطى للحضارة صورتها، ويخلق القيم فى حرية تامة، لا يأبى للخير والشر، أو الحق والباطل». لقد وضع هذا السيد أو الإنسان الأعلى القيم والمعايير وعلى الآخرين تقديم فروض الطاعة والولاء. . نعم هذا السيد حر ولكن الحرية بمعناها ألا يبالى بالقسوة والحرمان، لا ينشد السعادة والاستقرار، حر بألا يجعل أى شىء يتحكم فيه أو يضعفه ولا حتى غرائزه وشهواته، حتى الموت إن جاء فمرحباً به ما دام عاش حراً ، فليمت حراً، إنه السيد - الإنسان الأعلى.

كتب نيتشه على لسان زرادشت: « ناصحاً هذا الإنسان الأعلى: ستجثون سعياً وراء عدوكم ، وستناضلون وتجاهدون من أجل أفكاركم، لا أوصى بالسلام، ولكن بالظفر والانتصار، فليكن عملكم إذاً نضالاً، وسلامكم انتصاراً» . عاش على فكر نيتشه كثيرون، والتاريخ ملىء بقصص الصراع وقصص السيادة والعبودية، منهم السيد الارستقراطى الذى نادى به نيتشه ومنهم الطاغى الذى يحسب نفسه أو ينادى به الناس تملقاً وخوفاً، من الأسياد، ولكن يتملكه طباع العبيد، وله صفات الرقيق. . ندر أن وجد هذا السيد أو الإنسان الأعلى الذى نادى به نيتشه، فالإنسان بغرائزه المتضادة ونظمه المتشابكة المعقدة لا يمكن أن يتكون منه إنسان نيتشه الأعلى لأن الإنسان دائماً وأبداً هو السيد العبد، حتى لو مال البعض إلى السيادة، والبعض الآخر إلى العبودية فمازال داخل السيد جزء من طباع العبيد، ومازال داخل العبد جزء من طباع السادة، قد يختلف السلوك وفقاً للموقف ولكن هذا النذر البسيط من أخلاق السيادة أو العبودية مازال بداخلنا.

عاطفتان هامتان تستمدا قوتيهما من الحمية والكبرياء وهما العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية. . الإنسان السوى يحب دينه ويدافع عنه كما يحب وطنه ويزود عنه وقت الشدة، ولكن قد تتضخم هذه العاطفة عند بعض البشر فيغالون فى الحماسة، أنهما نوع من التقدير للذات والتقدير للجماعة التى ينتمى إليها الفرد، هذا النوع من العواطف يستمد قوته من الرغبة فى نيل التقدير والاعتراف كما كتب فوكوياما فى كتابه نهاية التاريخ ، فالفرد يغضب إذا استخف آخر بدينه وسب وطنه وقد يدفع حياته ثمناً للدفاع عنهما. . لقد كانت هاتان العاطفتان سبباً فى حروب كثيرة وطويلة عبر التاريخ ومازال البشر يعانى من ويلات تعارض الجماعات أو الشعوب فيما يخص مثل هذه العواطف.

الوطن هو المكان الذى يعيش فيه الفرد أو يستثمر فيه ماله، وما العولمة إلا توجيه الأنظار والاهتمام إلى عالم يضم جميع الشعوب والدول فى وطن واحد دون التقيد بلغة أو حدود أو عقيدة، لقد وجدت ثقافة مشتركة بين سكان كوكب الأرض، سنجد مشروب (الكوكاكولا والبيبسى كولا) فى الولايات المتحدة وأوروبا، كما

سنجده فى روسيا والصين، وانتشرت محلات (كنتاكى وماكدونالدز) فى الشرق كما انتشرت من قبل فى الغرب.

فالحضارة الغربية تحول الصراع الآن من صراع عاطفى إلى صراع اقتصادى، ومن صراع حمية الكرامة والسيادة، إلى صراع قوى قائم على مبدأ: أنا أربح وأنت أيضاً تربح (Win - Win Approach) لا أعتقد أن اللعبة تسير دائماً على هذا المبدأ، فإن غرائز حب البقاء وغرائز إثبات الذات تشد اللعبة إلى: أنا أربح وأنت تخسر(Win - Loose Approach) أو على الأقل أنا أربح أكثر وأنت تربح أقل. . أنه نوع من الصراع الغير دامى ولكنه مرتبط بالسيادة والعبودية، فالمادة قوة وهى من دعائم السيادة، والفقر والحاجة ضعف وهى أساس العبودية.

هل ترتبط سياسة القوة بالنظام الديمقراطى الليبرالى، قد أجاب فوكوياما فى كتابه نهاية التاريخ عن هذا السؤال بقوله: «لا تزال سياسة القوة هى السائدة بين الدول التى لا تأخذ بالديمقراطية الليبرالية، وسيؤدى التأخر النسبى فى وصول التصنيع والقومية إلى العالم الثالث، إلى اختلاف حاد بين سلوك الكثير من دول العالم الثالث من جهة، وبين سلوك الديموقراطيات الصناعية من جهة أخرى، وسينقسم العالم فى المستقبل المرئى إلى شطر تخطى التاريخ، وشطر لا يزال غارقاً فى التاريخ. وفى عالم ما بعد التاريخ سيكون الاقتصاد هو المحور الرئيسى للتفاعل بين الدول، فى حين تتضاءل أهمية القواعد العتيقة لسياسية القوة».

بالتأكيد أصبحت الدول فى الوقت الحالى تسعى إلى رفاهية شعوبها من خلال إدارة اقتصادية رشيدة، ولكن لم تخفض الدول الغربية ذات الصفة الديمقراطية الليبرالية من إنفاقها العسكرى، لقد تضخم قطاع الصناعات العسكرية والصناعات المغذية له فى هذه الدولة وأصبحت العمليات العسكرية عائد مجزى لها، وإن لم تقم حرب فمن السهل بالتخطيط المحكم تنفيذ سيناريو حرب وضع مسبقاً، وفى صراع الخليج العربى ودول البلقان مثال على ذلك. . لن تنتهى سياسة القوة طالما يوجد كل من الطمع الإنسانى لجنى أرباح من العمليات العسكرية، وحمية الكبرياء الكاذب التى توهم النفس بالتفوق عن الآخرين.

الجماعة هى مجموعة أفراد، يوجد بينهم تأثير متبادل ، كما تأثر الجماعة فى الفرد، تتأثر الجماعة أيضاً بذاتية الفرد، يجمع ما بين الجماعة ثقافة واحدة، ولغة للتفاهم وتبادل المعلومات، وما الدولة إلا مجموعة كبيرة أو مجموعة من الجماعات قد يجمعها ثقافة واحدة أو عدة ثقافات، وقد يجمعها لغة واحدة ودين واحد، أو عدة لغات وعدة ديانات. . تعددت الأسباب المؤدية إلى استخدام القوة ونشوب النزاع بين الدول، فمنها أسباب اقتصادية مثل السيطرة والنزاع على حقوق التجارة والموارد الطبيعية، ومنها دينى/ قومى/ عنصرى/ ثقافى، ومنها نفسى لتفريغ الطاقة العدوانية الكامنة داخل الفرد الذى يعتبر نواة المجتمع والدولة. . إذا كان الإغريق قد اشتهروا بحبهم للحروب والاعتداء على الدول والشعوب المجاورة دون مراعاة لأى قواعد أو علاقات إنسانية، فإن بعض الفلاسفة الرومان قد حاولوا تحديد مشروعية الحروب بما يسمى بالحرب العادية وهى التى تبدأ - حسب اعتقادهم- بموجب القوانين وتحظى بموافقة الحكماء، ومتماشية مع مشيئة الآلهة. . وضع الرومان القدامى قواعد وأسباب للحروب، وهى الإخلال بمعاهدة أو الاعتداء على السفراء، أو إنتهاك حرمة الأراضى الرومانية، أو مساعدة أحد أعداء روما.

أعاد جروشيوس فى القرن السابع عشر مفهوم الحرب العادلة باعتبارها وسيلة للسيطرة على استخدام القوة، بعزل الأسباب الدينية والعقائدية ، فبين أن الأسباب العادلة للحرب هى الدفاع عن النفس، وحماية الممتلكات، ومعاقبة المعتدى على حقوق الدولة أو على مواطنيها، كما عدد جروشيوس الأسباب الغير عادلة للحروب، مثل التوسع الجغرافى، وإخضاع دول أخرى للسيطرة بدون رغبة منها، ذهب مفكرو القرن الثامن عشر إلى اعتبار الحرب ضرورة لسيادة الدولة، ومن مبدأ المساواة بين الدول يجب أن تتعهد الدول بالمحافظة على التزاماتها، واحترام المعاهدات التى تعقدها، والامتناع عن التوسع الإقليمى والتدخل فى شئون الغير، واللجوء إلى الوسائل السلمية لحل النزاع مثل المفاوضات والتحكيم والوساطة، وبناءً على ذلك اعتبرت الحرب مسألة واقعية متعلقة بالقانون الطبيعى، فإذا ما وقعت الحرب، فإن القانون الذى يطبق هو قانون الحرب والحياد، بغض النظر عن كيفية قيام

الحرب وعدالتها.. أنهت معاهدة فرساى عام ١٩١٩ الحرب العالمية الأولى، وأنشئت عصبة الأمم عام ١٩٢٠ ، وفى عام ١٩٤٥ وبعد الحرب العالمية الثانية تكونت الأمم المتحدة، والذى نص ميثاقها على حفظ السلام والأمن الدولى، وإنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس التساوى فى الحقوق وحق تقرير المصير، وعلى مبدأ حل النزاعات حلاً سلمياً والامتناع على التهديد باستخدام القوة، فلا تم الاستغناء عن القوة ولا انتهت الحروب.. لا يدعونا الاستمرار فى استخدام القوة لليأس والتسليم، فالداعين للسلام والوفاق تواجدوا منذ بداية وجود النظام البشرى، وقد يستمروا حتى نهاية هذا النظام، ولكن مبدأ القوة كما هو كائن داخل الإنسان سيستمر أيضاً بين الدول.

كما انتهج الفرد فلسفة القوة، تبنت الدول أيضاً سياسة القوة، لم تعد القوة العسكرية وحدها كافية للسيطرة والهيمنة ، فيوجد عوامل أخرى يجب توافرها حتى تستطيع الدول فرض إرادتها وتسير باقى الدول فى ركابها.. إن الاقتصاد والمال والمؤسسات العملاقة، والبحث العلمى، فى جميع أفرع الطب والهندسة والزراعة والصناعة والكيمياء والفضاء.. ووسائل الاتصال ، كلها قوى أخرى لازمة لضمان استمرار التفوق وفرض الإرادة، فالقوة حالياً هى كما كتب صامويل هنتنجتون: «قدرة فرد أو جماعة ما على تغيير سلوك أو جماعة أخرى، والسلوك يمكن أن يتغير عن طريق الإقناع أو القسر أو النصح ، والذى يتطلب بدوره أن يكون لدى مستخدم القوة مصادر اقتصادية وعسكرية ومؤسسيه وديموغرافية وتكنولوچية واجتماعية أو غيرها.. قوة الجماعة أو الدولة هكذا تقدر عادة بحساب المصادر الموجودة تحت تصرفها فى مقابل تلك التى فى يد الدول أو الجماعات التى تريد أن تمارس نفوذا عليها».

فى كثير من الأحيان لا تكفى القوة وحدها للسيطرة والهيمنة ، قد تؤدى المقاومة ذو الطبيعة الحرة إلى خسارة كبيرة إلى مستخدمى القوة، فالإنسان السيد الحر، تأبه عليه كرامته أن يستسلم، ويسير مصيره إلى الكفاح والموت على أن يعيش عبداً ذليلاً، وقد تعلمنا فى العقود الأخيرة من تجربة العمليات الإرهابية أو الفدائية (من

وجهتى نظر الطرفين النقيضين)، أن اليأس يكلف الطرف الآخر الكثير فى عملياته التدميرية الانتحارية. . وتعتبر نصيحة جيمس سكوت فى المرجع السابق ذكره حكمة هامة فى استعمال القوى خاصة فى العصر الحديث حيث تعددت مراكز القوى: «ان المرء لا يمكنه أن يحكم عن طريق القوة وحدها. . صحيح أن القوة تكون عاملاً حاسماً، ولكن من المهم أيضاً إن يحوز المرء على ذلك العنصر النفسى الذى يحتاجه مروض الحيوانات للسيطرة على حيوانه، إن على المحكومين أن يظلوا على قناعة بأننا نحن المنتصرون» . . لقد فشل الأمريكان فى الستينيات والسبعينيات فى القضاء على الفيتناميين، ولكن تعلم الغرب الدرس ونجح فى تعبئة الرأى العام العالمى قبل تدخلها فى حربى الخليج والبلقان فى العقد الأخير من القرن الماضى.

بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وتحوله من دولة رائدة إلى دولة تابعة، أصبح الغرب بمفرده متمثلاً فى الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، القوة العظمى المسيطرة على مجريات الأمور فى نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة. . فهذه الدول تملك نظاماً مصرفياً قوياً وتتحكم فى جميع العملات الصعبة، ولها القدرة فى التدخل العسكرى على نطاق واسع، وتتحكم فى الطرق البحرية، والتكنولوچيا الحديثة، كما أنها تسيطر على الصناعات الخاصة بالفضاء ووسائل الاتصال العالمية وصناعة الأسلحة الحديثة ذات التقنية العالية. . أصبح الغرب كما يقول هنتنجتون: «مسيطر بشكل طاغ وسيظل رقم واحد من ناحية القوة والنفوذ فى القرن الواحد والعشرين»، تلهث وراءه الصين مدعمة بأراضيها الواسعة، ورخص الأيدى العاملة، والدعم المعنوى من بعض دول آسيا والجاليات الصينية الكثيرة المنتشرة فى جميع بقاع المعمورة.

أنهكت القوى العسكرية والمنافسة فى مجال الفضاء اقتصاد الاتحاد السوفيتى، فتداعى نظامه وانفرط عقده، قد تكون خطة مسبقة من الغرب، أحكم تنفيذها للقضاء على الشيوعية وأنفراد الرأسمالية والاقتصاد الحر بقيادة اقتصاد العالم. . هل لنا أن نتخيل أنه فى بداية الألفية الثالثة يصل متوسط الدخل القومى للفرد فى الدول الغربية ما بين ثلاثين وأربعين ألف دولار، بينما لا يتعدى هذا الرقم فى بعض البلاد

الفقيرة فى آسيا وأفريقيا مائة دولار. . والشىء الذى يدعو للحزن والأسف، أن معظم الصراعات والمنازعات التى نشبت فى القرون الماضية هى بين الدول الفقيرة ذات الموارد الضعيفة، والتى تشترى بإمكانياتها المحدودة أسلحة وعتاد عفى عليها الزمن من مخزون القوى الكبرى، والتى تستغنى عنها للسذج من البشر أو الدول، بعد تطوير وتحديث أسلحتها ونظمها العسكرية.

مارسوا الطغاة أساليب كثيرة لتحطيم عقائد معارضيهم، أى تحويل الإنسان الحر إلى عبد. . انتشر فى أول النصف الثانى من القرن العشرين مصطلح غسيل المخ (Brain Washing) كان الغرض من غسيل المخ هو إعادة تشكيل أفكار الفرد لتتماشى مع النظام المستبد السائد.

أنها عملية تحطيم الكيان الفكرى للفرد أو المجتمع وإحلال فكر جديد يضمن للنظام السيطرة والبقاء. . استخدمت أساليب كثيرة لغسيل العقول البشرية، كان أكثرها قسوة الإيذاء البدنى والنفسى. . استخدام الطغاة وسائل كثيرة للتعذيب، لاستخلاص اعتراف ، أو السيطرة على سلوك معتقليهم ، أو لضرب أمثلة لبقية الأفراد أو المجتمعات حتى ينتابهم الخوف واليأس، فيكفوا عن المطالبة بحقوقهم السياسية والمادية والاجتماعية. . استعمل الحبس فى حجرة كئيبة وقذرة لقهر المعتقلين، عزلوهم عن العالم الخارجى، فعاشوا سنوات طويلة بدون أى اتصال بالبيئة الخارجية، لا يستطيع المعتقل أن يميز ليله من نهاره، يقضى السنوات الطوال دون أن يسمح له بالقراءة أو الاستماع إلى مذياع، أو حتى معتقل آخر يؤانسه، منعوا عن المعتقل النوم لأيام طويلة، حتى تحدث للمعتقل اضطرابات نفسية وعقلية، يعيش المعتقل ويقضى حاجته فى نفس المكان. . ما أكثر ما امتهن الإنسان، قد يتمنى المعتقل موته فلا يجد إلا الإهانة والإذلال.

إذا كانت القوة هى القدرة على إحراز نتيجة تضمن تحقيقاً للمصالح والرغبات، فمن المستحيل تساوى القوى بين أفراد البشر، كنتيجة لاختلاف الميراث البيولوجى والسيكولوجى والاجتماعى، ولتباين تراكم الخبرات والتجارب المكتسبة عبر سنوات

عمر الفرد. . شرح وبرر الفيلسوف الأغريقى أرسطو فى افتتاحية كتابه "السياسة" الاختلافات فى السلطة واستعمال القوة بين الأسياد والعبيد، وبين الأزواج والزوجات والأبناء، أيضاً سرد الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر أسباب عدم المساواة فى القوة فى مقالته "محاضرة عن جذور عدم المساواة" وأرجعها روسو إلى عدم المساواة فى الملكية. كما قدما ماركس وأنجلز تفسيراً مشابهاً فى "البيان الشيوعى".

ما هى عناصر القوة ؟ أى العناصر التى يمكن من خلالها وعن طريقها الحصول على القوة . يمكن تلخيص هذه العناصر فى النقاط الثمانى التالية :

١ - **السلطة والحكم** : للحصول على مزايا مباشرة «مثل الأصول والمكافآت المادية وغير المادية، متع ترفيهية. .» ، ومزايا غير مباشرة «مثل توظيف الأهل والمعارف، خدمات متميزة. .» كذلك التحكم فى أقدار عدد كبير من البشر خلال المكانة والوضع الوظيفى.

٢ - **النفوذ** : تحقيق الرغبات والوصول إلى ما نبغيه عن طريق الآخرين «الاتصالات، علاقات عامة ، تبادل منفعة. .».

٣ - **المال** : لشراء الاحتياجات المادية وغير المادية والتملك ، وشراء مجهود وعمل الغير، واستمالاتهم إلى جانبنا فى الأزمات والنزاع.

٤ - **السلاح** : إجبار الآخرين للخضوع لإرادتنا ، رغما عن إرادتهم ، بقوة السلاح.

٥ - **الإعلام** : الترويج للأفكار والمعتقدات التى نعتنقها لما فيها مصلحتنا الشخصية، مستخدمين جميع الوسائل النفسية، والاجتماعية ، والإعلانية.

٦ - **الجاذبية الشخصية** : أو الكاريزما (Charisma) ، وهو مصطلح مستمد من كلمة يونانية بمعنى (نعمة إلهية) ، وتعنى هنا قوة الشخصية والقدرة على الإقناع، وسحر البيان، والوعود البراقة لتحقيق مصالحنا والوصول إلى رغباتنا، مثال على

الكاريزما، الزعيم الهندى غاندى الذى لم يملك السلطة، أو النفوذ، أو السلاح ، أو الإعلام، ولكن كان لديه قوة الكارايزما ليقود الشعب الهندى.

٧ - **العلم والمعلومات** : استخدام العلوم المختلفة، المادية منها مثل الكيمياء (أدوية مخدرة أو مؤثرة فى وظائف إدارة الجسم) ، والهندسة الوراثية ، وعلوم إنسانية (علم نفس، اجتماع) واستخدام السحر والغيب والخرافات للتحكم فى الفئات التى تؤمن بهذه المعتقدات، وكذلك استخدام المعلومات للحصول على المال بطريقة شرعية أو عن طريق الابتزاز.

٨ - **التسلط النسائى** : (Matriachy) من خلال الجنس ، والعاطفة، ودموع التماسيح، أى استخدام الضعف الأنثوى كقوة للسيطرة على الرجال.

كان ومازال السعى إلى الحكم هدفاً للحصول على القوة. رأى الفيلسوف السياسى الإنجليزى توماس هوبز فى القرن السابع عشر، أن البشر بطبيعتهم أنانيين يسعون دائماً إلى القوة، كما وردت أرائه فى كتاب روبرت دال "التحليل السياسى الحديث" فى قوله: « إن الناس تدفعهم عواطفهم ويرشدهم عقلهم، وإن العاطفة هى بمثابة الريح التى تملأ أشرعة السفن، فى حين أن العقل هو بمثابة اليد الممسكة بالدفة، وفى مجاز آخر، نجد أن الإنسان بمثابة المركبة التى تجرها جياد العاطفة غير المستأنسة ويوجهها العقل. والرغبات الإنسانية الشرسة. ولكن العقل يفرض الاعتدال، وبمساعدة العقل يستطيع الناس أن يكتشفوا قواعد أو مدركات عامة تمكنهم من تحسين فرص الوصول إلى الغايات التى تمليها عليهم عواطفهم. ومن ثم فإن كل الناس يسعون إلى القوة من أجل إشباع عواطفهم، ولكن عقولهم هى التى تدلهم إلى كيف يسعون إلى القوة بصورة تقلل من الإحباطات والهزائم واحتمالات الموت العنيف».

أكد عالم العلوم السياسية الأمريكية هارولد لازويل على ما ورد فى نفس الكتاب السابق: « أن الساعى إلى القوة إنما يقوم بذلك كوسيلة لتعويض الحرمان النفسى الذى عاناه أثناء مرحلة الطفولة. . وأن أشكال الحرمان النمطية التى يعتقد أنها

تستثير السعى إلى القوة، تتمثل فى افتقاد الشعور بالاحترام والدفء فى سن صغيرة، والذى يؤدى إلى تقلص الشعور بتقدير الذات. . وفى مرحلة الطفولة أو بعدها، يتعلم الساعون إلى القوة كيف يعوضون هذا الشعور المتمثل فى انخفاض تقديرهم لذواتهم من خلال السعى نحو القوة، فحصولهم على القوة يجعلهم مهمين ومحبوبين ومحترمين ومقدرين. . إن الساعين إلى القوة لا يملكون بالضرورة وعياً وإدراكاً واضحاً لسبب سعيهم وراء القوة، فهم عادة ما يبررون سعيهم إلى القوة فى عبارات تقبلها قيمهم الواعية، وربما تقبلها أيضاً الأيدولوچية السائدة بين هؤلاء الذين ينتمون إليهم». تناسى لازويل الدوافع الأخرى الفطرية الكامنة داخل البشر من غرائز وعواطف مركبة، وميول عدوانية يدعم تفريغها تملك القوة.

يقدر بعض الساعيين إلى القوة تكلفة الحصول عليها، بحساب الفائدة/ التكلفة (Benefit/cost)، لاتخاذ القرار من جدوى السعى والتضحية بأشياء أخرى كثيرة للحصول على القوة من عدمه. . بشىء من الدقة فى المعلومات المتاحة، وتحليل الاحتمالات والمخاطر (Risk Analysis) يمكن حساب الفائدة المتوقعة، أما التكلفة فيمكن اعتبارها تكلفة الفرصة البديلة (Opportunity Cost) للسعى وإنفاق الموارد المالية والمجهود والوقت للحصول على النفوذ، أو القوة بصفة عامة. . تختلف تكلفة الفرصة البديلة من شخص لآخر طبقاً لطبيعة عمله ووضعه الاجتماعى وتكوينه النفسى، قد يميل البعض إلى الراحة والاستقرار النفسى والعصبى مما يجعل تكلفة الفرصة البديلة مرتفعة لعدم توافق سعى الحصول على القوة مع الراحة والخلود إلى الاسترخاء والاستمتاع بمباهج الحياة، فالحصول على القوة يستلزم العيش دائماً فى خطر وعدم استقرار كل شىء له ثمن، وثمن القوة غالٍ، ولكنه يستحق السعى عند بعض الناس.

طيفٌ أنت أيها الإنسان، تجىء وتذهب لا يشعر بك إلا القليل من الكثير، فعشها قوياً، دمر، فلن ينتهى الكون بتدميرك، يجب أن يكون تدميرك قوى وسيطرتك شاملة، أنت سائر إلى الموت، فاجعل ذكراك سطوراً فى التاريخ، إذا كان فى داخلك خير فافعل الخير وتعذب من غدر الآخرين، ولكن إذا دمرت فلن تندم،

فالموت سينهى كل شىء، سيحجب العذاب ويحجب الندم، انهى حياتك بيدك إن لم تستطع أن تستخدم القوة الموجودة فى الكون، فى كل مكان حولك توجد القوة، إن لم تستخدمها أنت استخدمها الآخرين، فلماذا لا تكون أنت الرائد وأنت الأفضل. . الإنسان لا يخاف إلا من القوى، فعش قوياً ولو لمجرد لحظات قليلة، شعور عظيم ورائع، شعور أعلى من جميع اللذات حتى من اللذة الشبقية. . أن تكون متفوقاً بالقوة. . فلسفة القوة لها عشاقها ومطبقيها فى نظام كونى قائم لمجموعة شاملة (Global Set) تحوى على كل شىء وارد فى ذهن الإنسان، فلسفة انتهجتها أيضاً بعض الدول الكبرى، وما الدول إلا مجموعة أفراد لهم نفس الفلسفة، ويعيشون بنفس المنطق.


سيكولوچية العدوان والخنوع

سيكولوجية العدوان والخنوع

الإنسان فى علم النفس هو سلوك يقوم به الفرد متضمناً انفعالاته، وأفكاره وإدراكه، ونشاط متصل من فعل/ رد فعل يتخذ فيه قراراته ، وتكون شخصيته التى يرتبط بها، أو سيرته الذاتية التى يتعرف بها الإنسان على ذاته ويتعرف الآخرين عليه. . فالإنسان تحكمه غرائز موروثة عبارة عن استعداد فطرى لا يحتاج إلى تعلم، يدفع الفرد إلى القيام بسلوك خاص، وكذلك تراكم تجارب اكتسبها الإنسان خلال رحلة حياته من البيئة المحيطة التى تشمل الطبيعة وأفراد آخرين.

اختلف علماء النفس فى عدد الغرائز، ولكن فى هذا المجال يمكن تصنيف بعضها بالغرائز التى تدفع الإنسان إلى السلوك العدوانى، مثل غرائز المقاتلة، والغضب والنفور والسيطرة، والتملك، وغرائز أخرى قد تدفع الإنسان إما إلى العدوان أو إلى الخنوع مثل غريزة حب البقاء ، والغريزة الجنسية، فالإنسان قد يصارع إذا وجد نفسه مهدداً بالموت أملاً فى إنقاذ نفسه، وقد يستسلم إذا وجد أن الاستسلام ينجيه . . أيضاً غريزة الجنس قد تدفع الإنسان إلى العدوانية إذا لم تشبع حاجاته الجنسية، أو قد يسلك السلوك الخضوعى لإشباع حاجته الجنسية أو لاستمالة الطرف الآخر السادى.

قد تتعدل الغرائز وتتحول إلى ميول مركبة وعواطف، فعاطفة الحب ليست غريزة ولا ميلا فطرياً، ولكنها عاطفة مركبة تستثار من الغريزة الجنسية، وغريزة التملك ، وغريزة حب الاجتماع، يعلق بعض علماء النفس أهمية خاصة للعواطف إذ يعتبرونها القوى التى تدفع مباشرة إلى السلوك.

وجه علماء الأنثربولوچيا وعلماء الاجتماع النقد لنظرية الغرائز فقد كشفت دراسات الأنثربولوچيا عن اختلاف السلوك لنفس المواقف بين الثقافات المختلفة، فالخصومة لا تحسم عند بعض قبائل الهنود الحمر فى كندا على المحيط الهادى بالاشتباكات والمعارك، ولكنها تحسم بعقد حفل يتبارى فيه الخصمان بالتنازل عن ممتلكاتهم ، ويعتبر فائزا من يتنازل عن أكبر قدر من الممتلكات.

إن حاجات الفرد تتغير مع مجال الزمن الخاص بالفرد، فقد يستسلم الإنسان لمن يحبه ويخضع له ، وبمرور الزمن وباكتساب تجارب أخرى مختلفة قد يثور نفس الإنسان على نفسه أولاً ثم على الطرف الخاضع له، أى على من يحب، وبمعنى آخر قد يثور من رضى بعبوديته بعد فترة من الزمن قنع فيها بوضعه واستسلم لقدره كعبد، وعلى ذلك فقد تحول علماء النفس إلى دراسة الدافع (Motive) الفطرى منه والمكتسب. . يشمل تعريف الدافع الحاجات والحوافز، والمثيرات والبواعث، والعادات، والأهداف، والانفعالات. . إلخ.

فالدافع هو الذى يحرك الفرد فى اتجاه سلوك معين، فالحرمان من الطعام قد يدفع الفرد إلى البحث عن الطعام، أو العمل للحصول على مال لشراء الطعام، أو السلب والنهب لإشباع جوعه.

صنفت الدوافع إلى دوافع أولية ودوافع ثانوية، أما الدوافع الأولية فهى الدوافع التى لم يكتسبها الفرد من بيئته عن طريق التعليم والخبرة والمران وإنما هى استعداد يولد الفرد بها، لذلك تسمى أحياناً بالدوافع الفطرية ويعتمد هذا النوع من الدوافع على الحالات الجسمانية (الفسيولوچية). درس علماء النفس الدوافع الأولية من ثلاث اتجاهات ، الاتجاه الأولى خاص بالناحية الفسيولوچية التى تحدد التغيرات الكيميائية والعضوية والعصبية داخل جسم الإنسان، ووظيفة الفرد فى توجيه النشاط، ففى حالة الجوع مثلاً تحدث تقلصات وانقباضات فى المعدة ، وتنتهى هذه التغيرات الفسيولوچية بالشبع. . أما الاتجاه الثانى فهو خاص بالناحية الشعورية، فالإنسان الجائع يصف شعوره الذى يعبر عن الجوع مثل إحساسه بفراغ فى معدته أو يشعر بتقلصات الجوع. . ويعتبر السلوك الظاهرى هو الاتجاه الثالث الخاص بتصرفات الإنسان الظاهرية، فقد يميل البعض إلى السلوك العدوانى عند الجوع، هذا السلوك هو الظاهر للآخرين الذين قد يقدروا الموقف لمعرفتهم شعور وإحساس الجائع، أو قد لا يعلموا سبب السلوك لجهلهم بالدافع. . إن الدوافع الأولية بصفة عامة تعتبر دوافع مشتركة بين جميع البشر فهى جزء من كيانه البشرى.

تختلف الدوافع الثانوية عن الدوافع الأولية بأنها لا يشترك فيها جميع البشر، فهى دوافع شخصية، خاصة بذات الفرد دون غيره، وتعتبر هده الدوافع السبب فى اختلاف شخصية الإنسان. . ومن أمثلة الدوافع الثانوية، العواطف والعقد النفسية، فالطفل الذى ينشأ فى بيئة عدوانية أو فى داخل أسرة تتسم بالعنف والعدوان تتكون لديه عبر السنين دوافع للعدوان.

يطلق علماء النفس على الدوافع الأولية، اصطلاح الدوافع الفسيولوچية، أما الدوافع الثانوية فهى دوافع نفسية (سيكلوچية) . . كما تم تقسيم الدوافع الأولية فإن الدوافع الثانوية يمكن تقسيمها إلى دوافع نفسية اجتماعية خاصة بالميل إلى الاجتماع والميل إلى السيطرة وتأكيد الذات . .إلخ، والقسم الثانى خاص بالدوافع الثانوية الفردية الشخصية وهذا القسم يشمل الحاجة إلى الحنان، والنجاح، والاستقلال، والميل إلى التملك. . . إلخ.

فى جميع مراحل رحلته يعيش الإنسان فى مجتمع ما، بداية من الأسرة، ثم المدرسة، فالعمل، فأسرة جديدة عند الزواج، كما أن الإنسان عادة ما ينتمى إلى مجموعة خارج مجال العمل والأسرة كالحزب أو النادى أو شلة أصدقاء، وفى ظل الميل إلى الاجتماع تنمو بعض الميول الاجتماعية لتحقيق الصلة بين الفرد وبين أفراد المجتمع، ومن هذه الميول: الاستهواء والمشاركة الوجدانية والتقليد. . يتمثل الاستهواء فى تقبل الفرد لأفكار معينة نابعة من المجتمع، دون أن يحاول تحليلها أو نقدها. . يكون الفرد أكثر قابلية للاستهواء عندما تكون معايير الحكم على الأشياء لديه ناقصة، فيتعذر عليه مراجعة ما يعرض عليه من أفكار أو أحكام، فيتقبلها كما هى بدون تفكير عقلانى. . أيضاً يميل الفرد إلى تقبل أى أفكار أو نصائح عندما يكون فى حالة من القلق والارتباك الذهنى أو عدم الرضا. . ورد فى كتاب "الدوافع النفسية" للدكتور مصطفى فهمى أستاذ الصحة النفسية بعض الأمثلة على الاستهواء مرتبطة بموضوعنا :

«بعد الحرب العالمية الثانية تعرضت بعض الشعوب المغلوبة إلى حالة من عدم الأمن الاقتصادى والسياسى لدرجة أنها كانت تجد فى الدعايات التى كانت تقوم بها روسيا الشيوعية منقذا لها، يبعد عنها شبح الجوع والحرمان والفوضى والاستبداد.. وهذا ما حدث فعلاً فى بلاد كبولندا ورومانيا وبلغاريا، إذ استهوت هذه المبادئ والأفكار الشيوعية تلك الشعوب واستجابت لها دون نقد أو تفكير أو مقارنة بينها وبين مبادئ الشعوب الأخرى، ولقد استغل كل من هتلر وموسولينى هذا المبدأ فقاما بدعوتهما بقلب نظام الحكم فى كل من البلدين مستغلين حالة عدم الارتياح والقلق والارتباك الموجودة فى كل من الشعب الألمانى والإيطالى والناجمة من سلسلة طويلة من مفاسد الحكم والارتباك السياسى فى كل من البلدين.. ومن بين الوسائل التى تشغل أخيلة أمثال تلك الشعوب القلقة المضطربة، النداءات المكتوبة أو الشفوية، فهى تساعد على إبراز ونشر حالة عدم الرضا والتذمر». يمكن ارجاع الاستهواء أيضاً إلى سيطرة العقائد والأفكار الثابتة (Fixed Mental Context) على تفكير الفرد، وهذا يفسر سهولة استهواء الفرد من المدخل الدينى أو العقائدى للجماعة.

تعتبر المشاركة الوجدانية من العوامل التى تمكن الفرد من ملائمة نفسه مع البيئة التى يعيش فيها، وتخضع المشاركة الوجدانية إلى النظام السائد فى المجتمع، فقد تسيطر روح العنف والعدوان على المجتمع، وقد يسود الخنوع/ الخضوع والاستسلام فى مجتمع آخر، فالإنسان منذ طفولته يكتسب السلوك العدوانى أو الخنوعى من البيئة المحيطة كنوع من المشاركة الوجدانية وحتى لايشذ عن المجموع. يعتبر علماء النفس الشعور بالذنب (Sense of Guilt) عاملاً من العوامل التى تدفع الفرد إلى مشاركة غيره وجدانياً، ولكن هذه المشاركة تنعدم عند الشعور بالخوف وعدم الأمان.. تزيد المشاركة الوجدانية مع الأقارب والأصدقاء وزملاء العمل والسكن، كما تتزايد عند النساء لسهولة إثارتهن عاطفياً.

يميل الإنسان عادة إلى التقليد لما فيه تيسير لقضاء الحاجة وإشباع الرغبات والوصول إلى الأهداف بسرعة نسبية، ويعتبر التقليد وسيلة ناجحة للتعليم واكتساب الخبرات والمهارات.. يختلف التقليد من تقليد ناسخ (صورة طبق الأصل أو تقليد

أعمى) وهو التقليد بدون تفكير أو مراجعة، والتقليد المعدل ليناسب إمكانيات الفرد وثقافة البيئة التى يعيش فيها، فإن قام الإنسان الشرقى فى تقليد الأمريكى فى مظهره ولبسه سيواجه انتقادات عديدة من المجتمع الشرقى المحافظ وسيتحول إلى إنسان شاذ عن المجتمع الذى يعيش فيه خصوصاً إذا كان هذا المجتمع متزمت وغير ليبرالى.

يعرف التملك بأنه الدافع أو الرغبة فى الحصول على شىء مفيد، وهو استعداد فطرى لدى الطفل الذى ينشأ فى مجتمع يتعلم منه أن له حق تملك بعض الأشياء دون البعض الآخر.. وعندما يكبر الطفل ويتعرف على فوائد الامتلاك فإنه يبذل جهده إما بالإغراء والمحايلة أو بقوة المال والعدوان لأخذ بعض ما يمتلكه الآخرون، وكلما كبر الإنسان كلما أيقن وتأكد من زيادة احترام الناس له بزيادة من ممتلكاته وأمواله، كما يشعر الإنسان بمزيد من الحرية والسعادة عندما تنمو ممتلكاته وتكثر أمواله.. هذا هو إحساس السيد عندما يمتلك العبد فيتطلع إلى تملك مزيد من العبيد والجوارى.

دائماً يتطلع الإنسان إلى تأكيد ذاته ونيل التقدير والاحترام من الآخرين، كما يميل البعض إلى الزعامة والقيادة وإظهار السلطة على الغير، ويتمثل هذا فى انتهاز الفرص التى تسمح للبعض بإخضاع من هم أضعف منهم وإظهار النفوذ والسلطان للغير فيصدر الأوامر إلى مرؤوسيه فى العمل أو إلى أفراد أسرته.. قد لا يوجد هذا الدافع عند كل الناس كما تتغير شدته من إنسان إلى آخر.. وقد اختلف علماء النفس فى إذا ما كان هذا الدافع فطرى أو مكتسب، ولكن الأكثر اعتقاداً أنه مكتسب من الوراثة ومن البيئة أيضاً.

فى نهاية تحليل موضوع الدوافع يبرز السؤال الرئيسى فى موضوعنا عن أصل الدافع إلى العدوان والرغبة فى المقاتلة ، وهل هى غريزة موروثة أو سلوك مكتسب من البيئة، من الأفضل فى هذا المجال أن نتركه للمختصين وأن نورد هذه الفقرة من كتاب الدوافع النفسية: « إن أصحاب مدرسة التحليل النفسى يفسرون السلوك العدوانى تفسيرات عدة ، وأول هذه النظريات تلك التى تعتبر العدوان مرتبط بالنمو

الجنسى للطفل فى مراحله المختلفة ، ويأخذ هذا الميل إلى العدوان فى الوضوح فى المرحلة الأخيرة لظهور عقدة أوديب، والتى يجمع المحللون النفسيون على أنها من العوامل الهامة التى تعمل على نمو وتطور الميول العدوانية لدى الطفل. . أما النظرية الثانية فهى التى تعتبر العدوان وظيفة من وظائف الذات "EGO" تظهر بتأثير الإحباط "Frustration" ، فقد أدت البحوث فى ماهية الذات والدور الذى تقوم به لتحقيق رغباتها إلى اعتبار العدوان من وظائف الذات الفطرية لتحقيق حاجاتها التى تتعلق بحفظ الحياة وتحقيق الأمن. . ومن الملاحظ أن تلك الميول العدوانية لا تخرج إلى نطاق السلوك والأداء إلا بتدخل من البيئة أساسه العرقلة والإعاقة والإحباط، والنظرية الثالثة هى التى تعتبر العدوان تعبيراً عن غريزة الهدم ، فإن فرويد بعد أن عدل عن نظريته فى غرائز الذات «Ego Instincts» بادر إلى اعتبار كل الحوافز الغريزية نابعة من قوتين عظيمتين هما إرادة الحياة التى تتعلق بتحقيق الحاجات الحيوية وإرادة الموت التى تتعلق بتحطيم تلك الحياة، والمظاهر الجنسية المختلفة ما هى إلا تعبيرات عن إرادة الحياة، إن المظاهر العدوانية المختلفة هى مظاهر للتعبير عن قوة الهدم والتحطيم، وبجانب الآراء السابقة التى تدين بفطرية الميل إلى المقاتلة والرغبة فى العدوان، فهناك رأى آخر يقول إن العدوان يكتسب فى ظل البيئة التى يعيش فيها الفرد نتيجة احتكاكه بالجماعة التى يعيش بينها ونتيجة للسلسلة الطويلة للسلوك الإحباطى والقمعى الذى يتعرض له الفرد فى جماعته).

يرى بعض علماء النفس أن الجنين داخل رحم أمه يمر بتجربة الإحباط من خلال القيود المفروضة على حركته وفى حيز محدود لا يستطيع داخله أن يفرض حريته فى الحركة، ثم يبدأ الطفل بمجرد ولادته فى البحث عن التنفيس عن هذا الإحباط بالسلوك العدوانى نحو بيئته المحيطة التى تقيد سلوكه الفطرى كما قيدت حركته داخل رحم أمه قبل الولادة. . أيضاً عاش الطفل داخل رحم أمه فى بيئة دافئة مريحة لا يشعر فيها بالجوع أو بالعطش أو تغير درجة الحرارة، ثم يصاب الطفل بصدمة الولادة عند الخروج من جنة الرحم إلى واقع مختلف يشعر فيه بآلام والحرمان والاختلاف، من ليل ونهار، ومن جوع وشبع، ومن عرى والتحاف بملابس

وأغطية. . من الطبيعى والمنطق بعد خروج الطفل من جنة الرحم إلى واقع أليم أن يشعر بإحباط وعدوانية مكتسبة منذ لحظة خروجه إلى نور الحياة.

وفى اتجاه آخر، يرى أدلر أن المعالم النفسية للإنسان تتحدد من خلال الغايات التى يصبو إليها، وينبع ذلك من حاجته للتوافق مع البيئة التى يعيش فيها، فلو أن الغرائز والقوى الفطرية هى التى تحكم وحدها سلوك الفرد، لما استطاع أن يعدل من شخصيته خلال رحلته الحياتية. لقد ذهب أدلر إلى أن الغائية تسيطر على النفس البشرية.

أكد أدلر على أن كل الكائنات الحية تتميز بالحركة، وأن كل حركة لابد لها من هدف، وغاية يسعى الإنسان إلى تحقيقها. . فإذا كان الإنسان يتطلع إلى الراحة والرفاهية وإلى التملك والزهو، فأنه سيسعى لإيجاد إنسان آخر ليحكمه ويستعبده، ومن كان غايته العيش فى سلام دون نزاع أو قتال سيظل طوال عمره عبداً لغيره.

السيد والعبد، يمتاز السيد عادة بصفة العنف العدوانية أما العبد فيمتاز بالخنوع والاستسلام، وكل من الصفتين موجودتين فى الإنسان منذ الصغر، فقد يتسم الطفل بالعراك والسلوك العدوانى مع أقرانه أو قد يشب خاضع مستسلم للآخرين.

ينشأ الطفل العنيف ذو السلوك العدوانى عادة إما فى بيئة تلبى جميع رغباته وتدلله، وإما فى بيئة عدوانية ينتشر فيها العنف والصراع بين أفراد الأسرة، ولكن بالطبع يوجد استثناءات فى هذه القاعدة، فالعمومية لا تطبق فى المجال الاجتماعى أو النفسى.

إذا كان السلوك العدوانى يبدأ مع الإنسان منذ الطفولة ، فمن الخطر أن نحول الطفل إلى النقيض من خلال الوازع الدينى والعزف على أوتار تأنيب الضمير، ففى التغير الانقلابى يتحول الطفل العدوانى إلى خاضع لدرجة الانحراف مثل الانحراف العدوانى، فهو لا يجرؤ على الاستجابة العدائية أمام أذى حقيقى يلحق به، ولا يشعر بالإحساس العدوانى فى المواقف التى تتطلب منه الدفاع عن نفسه والزود عن حريته وذاته، بل إنه يستسلم ويتحول إلى خاضع، موجهاً كل الشعور العدوانى إلى

داخل ذاته، فيشب ضعيف الشخصية، خانع ومستسلم، هادماً لذاته، من السهل أن يفرط فى شرفه ووطنه.

يتحول الإنسان إلى عبد عندما يستسلم، ويسلم بخنوعه ، والدافع فى هذا الموقف الانهزامى الاستسلامى هو انفعال الخوف من فقد الحياة، وفى الطرف الآخر يكمن انفعال الغضب المسئول عن حمية الإنسان والحافز للصراع والقتال.

يستثير الانفعالات كل ما يواجه دوافع الإنسان الشخصية والاجتماعية من تهديد، وتدور هذه الدوافع حول تقدير الذات والأهداف الاجتماعية للفرد. اذاً تشابه الخوف والقلق من الناحية الفسيولوچية، حيث أن كلاهما يسبب سرعة دقات القلب والشعور بالفزع، إلا أن الخوف يتضمن نوعاً محدداً مادياً من التهديد، بينما يكون القلق أكثر عمومية للتهديدات الشخصية. وجد الباحثون فى علم النفس ان استجابة الفرد للموقف الذى ينطوى على التهديد تتوقف على التقدير الشخصى لطبيعة التهديد، فعند العراك مثلاً قد يستجيب شخص لتهديد الطرف الآخر إذا كان يحمل سلاحاً، فيستسلم بدون مقاومة، وقد يقاوم حتى إذا كانت فى المقاومة نهاية لحياته.

قد يتخذ التهديد الشخصى صورة إحباط لسعى الفرد أوالجماعة نحو هدف معين فيحدث الغضب والعدوان، كما هو فى حالة التهديد، فإن التقدير الشخصى للإحباط يعتبر عاملاً رئيسياً لشدة الانفعال الغضبى والدافع إما للعدوان أو السلوك السلبى من تبلد وعدم مبالاة، وفى كل من انفعال الخوف أو انفعال الغضب، يسلك الإنسان السوى سلوكاً هادئاً يسمح له التفكير فى حل المشكلة بدلاً من تبديد طاقاته الانفعالية فى نوبات غضب عدوانى، أو فى هروب خوفى أو استسلام، وقد يخسر فى كلتا الحالتين معنوياً ومادياً.

وإن كان العنف والعدوان يسيران فى نفس الاتجاه السلوكى لكن يوجد فرق بينهما، لقد وصف د. أحمد عكاشة فى كتابه عن علم النفس الفسيولوچى هذا الفرق: «يمكن اعتبار العنف هو نهاية المطاف لسلوك عدوانى مستمر، فنستطيع تعريف

العدوان على أنه عقد العزم والإصرار على مطاردة وملاحقة اهتمامات الفرد، أما العنف فهو ملاحقة هذه الاهتمامات بالقوة أو التهديد باستعمال القوة». أما تعريف د. أحمد عكاشة للقوة والفرق بينها وبين العنف: « القوة عبارة عن عدوان مضبوط محكم ومحدد فى الشدة له اتجاهه وهدفه الخاص، أما العنف فلا يمكن التنبؤ بمجراه أو بدايته ويتميز بتطرفه ، وأنماطه غير المنطقية، وهنا يمكن أن يضيع أو يختص الهدف والمؤثر الذى فجر هذا العنف ، فالسلوك العنيف عادة ما يكون دوافعه ضعيفة إن لم تكن معدومة، فهو سلوك تلقائى ، متكرر له طابع النزوة».

يشكل السلوك العدوانى خطورة على البيئة المحيطة للفرد من أسرة أو مدرسة أو مجتمع، فالإنسان العدوانى يأخذ بالقوة ما ليس له حق فيه، ويسبب الضرر المادى والنفسى للآخرين، أما الإنسان الخنوع ذو الشخصية المستسلمة لايسبب مشكلة اجتماعية فى نظر المجتمع المحيط حيث أنه لا يعتدى على حياة أو ممتلكات الآخرين أو حتى يعترض على مصالحهم، بل بالعكس فإنه دائماً مضحى وسلبى، فكثيرا ما ينال رضاء من حوله أو من يستفيدون من سلبيته وخنوعه. ولكن عندما ينتشر هذا الخنوع فى المجتمع ويعم الشعب كله يصبح هذا الشعب ذليلاً انهزامياً مستسلماً يمكن استغلاله واستعماره بل يمكن معاملته معاملة العبيد، فتخور قوى الشعب ويضمحل ذكاؤه وتقل ابتكاراته وينخر سوس الاستعباد فى عظامه فينهار المجتمع أو الشعب بأكمله ويتدهور اقتصاده ويصبح هذا الشعب تابع ذليل لأسياده.

فى أحيان كثيرة يتبادل السلوكان العدوانى والخنوعى عند الفرد الواحد، فعند موقف معين قد يكون الإنسان عدوانى ثم يتغير هذا السلوك فى موقف آخر إلى سلوك خنوعى.. تغير الدورة المزاجية فى سلوك الإنسان ما بين الانبساط والعنف (بطول ١٤ يوماً لكل حالة)، كما تغير الدورة الشهرية فى سلوك النساء بالميل إلى العدوانية والعنف، أما إذا وجد الفرد نفسه فى موقف ضعيف ويشعر بالضآلة بالنسبة لمن حوله فعادة ما يستسلم للسلوك الخنوعى.

تعتبر السادية والماسوكية من السلوك العدوانى والخنوعى لدى الإنسان ، فالسادية تعنى حب إيذاء الغير فيتلذذ الإنسان السادى عند تعذيب الآخرين أو عند رؤية الألم عندهم، ويعتبر منظر الدم من أكثر المناظر بهجةً واغتباطاً عنده، أما الماسكوية (المازوكية / الماشوسية) فهى الرغبة والرضاء عن تقبل الإيذاء من الآخرين. اقتصر السلوك السادى / الماسوكى على الناحية الجنسية فقط عند علماء النفس القدماء ولكن هذين السلوكين ينصبان أيضاً على جميع النواحى الاجتماعية للإنسان، ففى معاملة الفرد مع الآخرين قد يتسم سلوكه بالسادية أو الماسوكية وقد يتحول السادى إلى ماسوكى فى بعض المواقف وقد يكون العكس صحيح فى مواقف أخرى.

ويتحول الضعف والإحساس بالمهانة أحياناً إلى العدوانية، فالإنسان المصاب بعاهة جسدية أو نقص فى شخصيته مع الإحساس ببعد زملائه ومجتمعه عنه قد يستعمل السلوك العدوانى لتعويض نقصه ولتأكيد ذاته ولجذب أنظار الآخرين. . كما يوجد نوع آخر من السلوك العدوانى وهو ما يسمى بعدوان اليأس. . إن الإنسان المحكوم عليه بالموت أو بالسجن مدى الحياة أو الذى لا يجد أى فائدة من حياته يكون من السهل عليه انتهاك حرمات الغير والتعدى عليهم، فالإنسان اليائس يكون فى موقف لا يخسر فيه إذا فشل ولكن سيكتسب شىء ما إذا نجح حتى لو كان هذا الشىء الانتقام من المجتمع الذى فرض عليه موقف اليأس.

ليس دائما تكون نتائج القصور والإحساس بالضعف والحاجة سلبية، فهذا الشعور يمكن أن يتحول إلى حافز للتطور والترقى. ذكر أدلر: « أن الشعور بالقصور ليس فى نفسه أمراً شاذاً، بل هو العلة فى كل تقدم وصل إليه الجنس الإنسانى، بل إن العلم نفسه، لا يمكن أن يقوم إلا إذا استشعر الناس جهلهم وحاجتهم لكشف حجب المستقبل، وهو نتيجة تشوق الناس لتحسين حالهم ولزيادة معرفتهم بالكون وسيطرتهم عليه، حتى أنه ليخيل إلىّ أن كل الثقافة الإنسانية تقوم على الشعور بالقصور».

ماذا يدفع الإنسان إلى العنف والعدوان؟ وماذا يدفعه إلى الخنوع والاستسلام؟، اختلف علماء النفس فى الدوافع والأسباب، هل هى غرائز وراثية ولد بها الإنسان؟ أم تراكم تجارب وخبرات مكتسبة عبر سنوات العمر منذ طفولة الإنسان؟، ينسب الرأى الأول السلوك العدوانى إلى غرائز الكراهية، والفردية، والموت، فالغريزة الأولى تدفع الإنسان إلى كراهية الآخرين ، أما الغريزة الثانية فهى تدفع الإنسان إلى الاعتداد بالذات والتنافر من ما هو دون الذات ما دام يوجد مصالح متعارضة مع الآخرين، فاحتياجات الإنسان كثيرة وتطلعاته كبيرة ويحد المجتمع من خلال أفراده طموح وتطلعات الفرد، فينبع الشعور بالكراهية والنفور من أفراد هذا المجتمع الذى يقف فى طريق إشباع احتياجاته ونزواته وشهواته، فهذا المجتمع قد سن القوانين ووضع القيم التى تقيد الإنسان، كما أن التنافس مع الآخرين دائماً موجود فى العمل من أجل لقمة العيش وخارج العمل، من أجل أنثى أو من أجل التفوق فى الأنشطة المختلفة للإنسان كالنشاط الثقافى، أو العلمى أو الرياضى، التصادم والتنافس لا ينتهى طالما وجد الإنسان فى مجتمع يعيش بداخله.. تعتبر غريزة الموت هى نهاية الصراع والقتال والمخاطرة لإثبات الذات ونيل اعتراف وتقدير الآخرين، فالموت قادم لامحالة (وإن كان من الموت بدا فمن العار أن تموت جبانا) ، فهذه الغريزة تدفعنا إلى الخوض فى الأهوال بعنف وعدوانية.

ينسب السلوك الخنوعى الاستسلامى إلى عدة غرائز وعواطف منها غريزة الاجتماع، وغريزة حب البقاء، وعاطفة الحب.. لكى يعيش الإنسان فى مجتمع فلابد له أن يتنازل ولو جزئياً عن ذاته الفردية، وعن جزء من طموحه واحتياجاته حتى لا يلفظه المجتمع ويفقد حب الآخرين، كما يرضى الإنسان ببعض الاستسلام أو الاستخدام من الآخرين حتى يشعر باحتياجهم الدائم إليه، فالإنسان فى العادة ينجذب إلى من يستطيع أن يستفاد منه حتى فى مجرد الاستماع إليه لتفريغ طاقته الانفعالية ، فالمستمع يضحى بجزء من وقته من أجل الاستماع ومن أجل التسرية والمشاركة مع الآخر، قد يضحى بعائد مادى من فرصة أخرى غير الاستماع أو يضحى بوقت ضائع يمكن الاستفادة به فى إشباع هواياته.. أما غريزة حب البقاء فهى التى تدفع الإنسان إلى الخنوع إذا وجد أن تكملة الصراع قد يؤدى إلى الموت،

فالبديل الآخر للصراع هو القناعة بالاستسلام ووقف الصراع أو حتى الرضا بأن يصبح عبداً للمنتصر. وفى الحب يستسلم الإنسان دائماً أو جزئياً إلى من يحبه، قد يفقد كرامته أو ماله ولكن لا يرضى أن يفقد من يحبه، عاطفة مركبة، خنوعية ومستسلمة.

إن الدافع العدوانى أو الخنوعى عند عالم النفس سيجموند فرويد يتمثل فى الرغبة السادية أو الرغبة الماسوكية وكلاهما يرتبطا بالليبيدو أو الطاقة الشهوائية الجسدية الجنسية.

فالإنسان السادى يجد لذة فى تعذيب الآخرين ولذة فى السلوك العدوانى، أما الماسوكى فيشعر بهذه اللذة عندما ينصب عليه هذا العدوان، وكلاهما يصلا إلى أقصى درجات الشهوة عند العدوان أو الخنوع.

ان اكتساب السلوك العدوانى ينبع عن عدم إشباع احتياجات ورغبات وطموح الفرد - وما أكثر احتياجات الإنسان - وبيئة عدوانية محيطة بالفرد تتسم بالعنف، يؤدى امتزاج هذين السببين إلى السلوك العدوانى والميل إلى الصدام والعراك، أما السلوك المعاكس للسلوك العدوانى فينشأ عادة من بيئة اجتماعية تفى باحتياجات ومطالب الفرد، بيئة متساهلة مرنة ليس طابعها العناد، بيئة متفتحة غير منغلقة أسلوبها التفاوض والمساواة بدلاً من الصدام والصراع، هذه البيئة تؤدى إلى سلوك طيب متسامح للفرد ولكن قد تؤدى أيضاً إلى الخنوع والاستسلام فى حالة التطرف فى التسامح والتساهل.

لم ينكر عالم الاجتماع البريطانى أنطونى جيدنز وجود علاقة بين الحرب والقوة وبين الذكورة، ولكنه ذهب إلى أن الحرب ليست توسيعاً لعدوانية عامة، بل مقترنة بظهور الدولة.. إن كثيراً من الرجال لا يحبذون الحرب ولكن يخوضونها كواجب وطنى، بدأت الأنثى فى العصر الحديث الاشتراك فى الخدمة العسكرية خاصة فى البلاد الغربية، واشتركت فى كثير من الحروب الحديثة التى أصبحت فيها القوة الجسدية لا تذكر بالنسبة لتكنولوچيا التحكم عن بعد.. إن حمية القتال والميول إلى

العنف كائن فى الجنس البشرى بنوعيه وإن كان بدرجة أكبر فى الإنسان الذكر، إلا أن الأنثى فى أحيان كثيرة تكون أكثر عنفاً واستعداداً للقتال والصراع عن الذكر، فالأنثى لها قدرة نفسية أكبر من الذكر فى الاحتمال وبحكم تكوينها البيولوچى تمر بها دورات تكون فيها أشد عنفاً وعدوانية.

كيف يبدأ السلوك العدوانى ؟ فى العادة يبدأ السلوك العدوانى من الشعور بالإحباط الذى يواجه الإنسان من عدم تحقيق رغباته واحتياجاته وعدم إشباع غرائزه، بدءاً بالاحتياجات الأولية مثل الأكل والشرب والنوم والجنس وكذلك الغرائز الأساسية مثل غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس كرد فعل لسلوك عدوانى ناتج من إنسان آخر . . كما يوجد حافز يصعد ويقوى اندلاع السلوك العدوانى وهو النظرة التباينية بين إنسان وآخر، أو بين مجموعة وأخرى، أو بين شعب وآخر. . فإحساس التعالى والتفوق الذى يوجد عند بعض البشر يولد السلوك العدوانى كما تتولد الطاقة الكهربية من فرق الجهد فيسرى التيار الكهربى بين القطبين، أيضاً يسرى التيار العدوانى من السيد القوى المتفوق (أو من يحسب نفسه كذلك) إلى العبد الضعيف الخانع (أو من يحسب نفسه كذلك) فيبدأ الصدام من سلوك عدوانى وعنف إلى حرب وقتال.

تأثر ثقافة الإنسان ومعتقداته أو ثقافة الشعوب بصفة عامة فى شدة أو ضعف السلوك العدوانى أو السلوك الانهزامى الخنوعى، فنجد فى الجزء الخاص بالعبودية فى العصور القديمة أن حضارات وثقافات وديانات قديمة قد قامت على العدوان والاعتداء على أرواح وممتلكات الغير، كما أن القبائل العربية فى عصور ما قبل الدعوة الإسلامية والقبائل الأوروبية فى العصور الوسطى كانت تتفاخر بغزوها للقبائل الأخرى وعدد الأسرى والقتلى من جانب الطرف الآخر.

قد يأخذ السلوك العدوانى شكل مباشر ضد الشىء الذى تسبب فى الإحباط، أو ضد ما يرمز إليه هذا الشىء، فقد يتشاجر العامل مع رئيسه فى العمل فيسب العمل نفسه كرمز لرئيسه المتسبب فى الصدام وقد يفشل الطالب فى تعليمه فيصب

سلوكه العدوانى على مدرسيه أو على المدرسة أو المعهد الذى يتعلم فيه، ويسمى هذا السلوك بالسلوك العدوانى الإبدالى. . إن الكاتب أو الرسام الذى يصب جام غضبه فى شخصية مكتوبة أو مرسومة قد يقصد بها شخصيات حقيقية فى واقعه الاجتماعى يريد الاصطدام بها ولكن أسباب كثيرة مثل المركز الاجتماعى أو الخوف من العقاب قد يمنعه من الخوض فى صدام يسبب له الضرر المادى أو المعنوى. . أيضاً تعتبر عملية إسقاط ما يراه الفرد معيباً فى سلوكه على الآخرين آلية يحمى بها نفسه من رد الفعل تجاه عيوبه . . لقد تعود الإنسان فى إيجاد المبررات الكثيرة تجاه سلوكه المشين فالقيم والمعايير الأخلاقية تعتبر نسبيه يضعها الإنسان حسب هواه ووفقاً لمصلحته الشخصية.

الأكثر احتمالا أن السلوك (العدوانى / الخنوعى) ناتج من كل من العوامل الوراثية الكامنة فى جينات الإنسان والعوامل البيئية التى يكتسبها الإنسان منذ ميلاده فى المنزل وفى حياته الدراسية والعملية، وكنتيجة للتطور فى تكنولوچيا الاتصالات والانفتاح فى مجال الأعلام فإن التأثير البيئى يشمل حالياً جميع ثقافات كوكبنا الأرضى، فالعنف السائد فى الأفلام أو المسلسلات التى تنتجها الولايات المتحدة الأمريكية وتبثها الأقمار الصناعية فى جميع بقاع الأرض تؤثر على الثقافات الشرقية بجانب الثقافات الغربية، كما يبهر البث المباشر للمعارك الحربية الشباب المتعطش إلى العنف والعدوان.

يمكن للفرد خاصة الشباب التنفيس والتفريغ عن شحنة العنف الزائدة وعن الطاقة العدوانية المكبوتة داخله من خلال مجالات أخرى كالرياضة البدنية عامة أو الرياضات العنيفة مثل الملاكمة والمصارعة خاصة. . كما تقوم الحروب بنفس المفعول بالنسبة للمجتمع أو الدول، فالمجتمع هو محصلة أفراد، فى المستقبل إذا سادت السياسة الديمقراطية الليبرالية دول العالم كما نوه الكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه «نهاية التاريخ - وآخر البشر» فقد تتجه الدول إلى مناغشة بعضها البعض أو الخوض فى غمار الحرب قتلا للملل ورتابة الحياة المستقرة، أيضاً قد يحدث تفكك داخلى للمجتمع أو لدولة ما نتيجة لانتشار السلوك الخنوعى وسيادة

الروح الانهزامية المستسلمة، فتكون الدولة فريسة سهلة لدولة عدوانية مغتصبة . . إن شيوع التفرقة بين طبقات المجتمع، ووجود سياسة القهر والطغيان والديكتاتورية تؤدى إلى خنوع عامة الشعب فيتحول الشعب كله إلى شعب خامل مستسلم يسهل السيطرة عليه من أى قوة داخلية أو خارجية.

يختلف التأثير الغريزى أو التأثير البيئى للعدوان أو الخنوع من شخص لآخر، فالشخصية الإنسانية لها صفات الانفرادية ، قد يختلف سلوك الأخوات، وقد تؤدى نفس المعاملة أو نفس التربية الشخصية إلى نتائج مختلفة . . لقد بنى الكون على التضاد والتباين فى السلوك وفى الشخصية الإنسانية، لكل من العنف أو الخنوع مدى يتغيرا فيه، فيوجد العنف الدائم والعنف الموقفى، كما يوجد العنف الشديد والعنف البسيط، والخنوع أيضاً قد يستمر عند فرد لفترة أو قد يثور الإنسان على نفسه ويتغير سلوكه من الخنوع إلى الاعتدال أو حتى إلى العنف والعدوان.

إن الإنسان السوى هو من يمتلك كل من السلوكين العدوانى/ الخضوعى، ولكن يتحرك السلوك فى منطقة الوسط بين العدوان والخضوع، والإنسان السوى هو الذى يستطيع أن يتحكم إلى حد ما فى سلوكه الانفعالى أو الخضوع بحيث لايتطرف السلوك العدوانى فيفقد حب أو احترام المجتمع أو يفقد حريته أو حياته إذا زاد العنف، وكذلك لا يتطرف السلوك إلى الخضوع فيفقد الإنسان ذاته وحريته وكرامته.

إن الإنسان العدوانى الطبع يضيف إلى المؤثرات الخارجية الوقتية للعدوان تراكمات نفسية سابقة فلا يأتى رد الفعل المثير للعنف والعدوان بل زائد عليه طبع عدوانى كامن داخله، أما الشخصية الخنوعية فتلتمس الأسباب والذرائع للتطرف فى الاستسلام، فمع قليل من الصدام ترفع الشخصية الخنوعية الراية البيضاء وتستسلم ، فهى شخصية تميل إلى العبودية وعدم تحمل المسئولية وتهرب من الصدام والصراع.

العنف قائم والخضوع قائم وليس بمقدور الإنسان أن يعيش بدونهما، بل إن عالم النفس سيجموند فرويد يرجع أساس التطور الحضارى إلى العنف وسياسة العدوان، فالقوانين التى تسن والنظم الاجتماعية التى توضع ما هى إلا تنظيم

العلاقات بين الأفراد وبعضهم البعض، وبين الدول وبعضها، كما أن المفروض فيها أن تتحكم فى عنف الإنسان بحيث ألا يَضر أو يُضر .

يرى بورهوس فردريك سكينر أستاذ علم النفس ورائد علم هندسة السلوك البشرى: « إن صراع الإنسان من أجل الحرية لا يتم بوازع داخلى، أو إرادة تسعى إلى التحرر، إنما هو رد فعل لمؤثرات البيئة، إن البشر مشغلون "بوهم الحرية" الذى يطمس من أمامهم رؤى المستقبل، وكلها لا تشمل تحرير الناس من السيطرة، بل تقوم على تحليل وتغيير أنواع وأشكال التحكم فى سلوكهم» . . كما يرى سكينر أن مايحتاجه البشر هو المزيد من السيطرة وليس العكس، كما رفض فكرة قدرة الإنسان على إصدار قرارات نابعة من إرادته دون تأثيرات خارجية، باعتبارها خداعاً بشرياً غير مفهوم.

تعرف الإرادة بأنها الطاقة الحيوية التى تدفع الإنسان للوصول إلى ما يصبو إليه ويتمناه، متغلباً على الصعوبات والمقاومات الخارجية والداخلية. تتمثل المقاومات الخارجية فى البيئة الخارجية، الطبيعية منها والإنسانية، فالطبيعة بقوانينها الفيزيائية قد تعاكس ما نخططه للمستقبل. قد نخطط لقضاء وقت ممتع فى السفر إلى مدينة ساحلية أو جبلية للاستمتاع بالطبيعة ، ولكن التغيير فى حالة الطقس قد يجعلنا نعيد التفكير فى العدول عن خططنا فالطبيعة الخارجية عامل هام فى تشكيل قدر الإنسان. والآخرين من البشر لهم اهتمامات قد تحثهم على مقاومة ما نبذله من جهد للوصول إلى أهدافنا . . أما المقاومات الداخلية فتتمثل فى تضاد الغرائز الفطرية، فالإنسان يريد التملك وفى نفس الوقت يتطلع إلى الراحة، اهتمامات تسير فى اتجاهات مختلفة، تتطلب منها أخذ القرار، ثم السعى للتحقيق، متخذين قوة الإرادة، كطاقة دافعة للوصول إلى الهدف . . يبرز السؤال التقليدى المصاحب لكل دراسة أو تحليل للسلوك الإنسانى ودوافعه ، والذى ينطبق أيضاً على قوة الإرادة، فهل هى فطرية أم مكتسبة؟ لكل من الإجابتين أنصار ومدافعين، وطبيعى أن يظهر رأى ثالث يعزز فيه مؤيديه إلى أن قوة الإرادة نابعة من الفطرة ومكتسبة أيضاً من التجارب الشخصية للإنسان . . من خلال قوة الإرادة نستطيع الوصول إلى أهدافنا، نستطيع أن نعدل من سلوكنا فى

أى سن من عمرنا، يمكن تحويل سلوكنا العدوانى إلى سلوك خضوعى، أو تعديل السلوك الخضوعى إلى سلوك عدوانى إذا لزم الأمر للدفاع عن ذاتنا ومجتمعنا. . يمكن أن تقوى الإرادة بالتمرين على العصيان الإرادى ، العصيان أمام الذات أولاً، بحرمان النفس مما تشتهيه، ثم العصيان أمام الآخرين، بالتمرد والمواجهة، بالمخاطرة والكفاح.

متماشياً مع تضاد وتباين النظام البشرى، يجىء التكيف فى الاتجاه الآخر للعصيان والتمرد. ينقسم التكيف إلى تكيف شخصى، وتكيف اجتماعى. . عرف الدكتور مصطفى فهمى شطرى التكيف فى كتابه "التكيف النفسى": « بالنسبة للتكيف الشخصى، هو أن يكون الفرد راضياً عن نفسه، غير كاره لها أو نافر منها أو ساخط عليها، أو غير واثق فيها. كما تتسم حياته النفسية بالخلو من التوترات والصراعات النفسية التى تقترن بمشاعر الذنب والقلق والضيق والنقص والرثاء للذات. . إن الأساس الأول لعدم التكيف الشخصى هو وجود حالة صراع انفعالى يعانى منها الفرد وجهات مختلفة. لا توجد حالة من حالات الصراع، إلا إذا تعرض الإنسان إلى حالة من حالات المنع أو الصد أو الإحباط، ويعرف الإحباط بأنه العملية التى تتضمن إدراك الفرد لعائق يحول دون إشباع حاجاته ودوافعه، أو توقع الفرد حدوث هذا العائق فى المستقبل. . أما التكيف الاجتماعى فهو عملية تتم داخل إطار العلاقات الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد ويتفاعل معها، سواء كانت هذه العلاقات فى مجتمع الأسرة أو المدرسة أو الرفاق، أو المجتمع الكبير بصفة عامة».

مسكين أنت أيها الإنسان، مطلوب منك شحذ قوة الإرادة، لتقاوم وتكافح وتناضل للوصول إلى أهدافك، مطلوب منك العصيان والتمرد إذا زادت الإساءة إليك أو خسرت من مسايرة الآخرين ومطلوب منك أيضاً التكيف مع الذات لتعيش بدون توتر أو صراعات نفسية، وكذلك التكيف مع المجتمع بأن تلتزم بأخلاقياته، تمتثل لقواعده ونظمه وقوانينه، وتجارى أفراد الأسرة، والعمل، والمجتمع ككل حتى تصبح جزءاً من تكوينه الاجتماعى. . الآخرين يضغطون عليك، وأنت تضغط على الآخرين، ومن هذه الضغوط المتبادلة يحدث التفاعل الذى يعتبر أساس ديناميكية النظام البشرى الشامل، القائم على الشد والجذب، وعلى الطاعة والعصيان، وعلى

الخضوع والعدوان، تضاد وتباين فى جميع الاتجاهات التى تغطى كل إحداثيات الفراغ الذى نشأنا فيه لنملؤه بحيوية الحركة، وسكون الراحة.

وصف الدكتور أحمد عكاشة النظرية الفسيولوچية للعنف والعدوان فى كتابه "علم النفس الفسيولوچى" :« تدل الأبحاث الحديثة على أن اللوزة فى المخ، والجهاز الطرفى فى السطح الأنسى فى المخ مع التنبيهات الكهربائية لأجزاء من الهيبوثلاموس بعلاقة العنف والعدوان بهذه المراكز فى المخ، وأنه لولا الاعتبار الخلقى لأمكن وضع حوالب مشعة فى هذه المراكز لعلاج السلوك العنيف المرضى».. نوه الدكتور عكاشة على أن احتساء الخمور وتعاطى المخدرات يلعب دوراً هاماً فى نشأة العنف حيث يتجمد النقد الذاتى، ويفقد الفرد القدرة على التحكم فى ذاته، كذلك فإن بعض الأقراص المنبهه للجهاز العصبى تؤدى إلى السلوك العدوانى.. وبيّن بعض علماء علم النفس أيضاً أن ميل الذكور إلى السيطرة والعنف والحيوية راجع إلى اختلاف الجنسين فى الوظائف الفسيولوچية والتكوين الكيميائى لبعض الإفرازات.

يسبب الإدرينالين (Adrenaline) جميع التأثيرات المقترنة بالخوف والإثارة، كسرعة النبض والتنفس السريع، ويطلق على مفعول الأدرينالين برد الفعل القتالى أو الذعرى.. والإدرينالين هرمون (Hormone) يفرز فى حشوة الغدتين الكظريتين، ويقف إفرازه متى استحث جهاز الأعصاب السمبتاوى، ووظيفة هذا الهرمون هو استثارة الجسم وحفزه إلى النشاط والحركة، والهرمون بصفة عامة عبارة عن مواد تطلقها الغدد الصماء فى مجرى الدم، وتفرز بكميات ضئيلة ولكنها تتحكم فى أعضاء معينة من الجسم، ويعمل الهرمون بالتعاون مع الجهاز العصبى لتوجيه معظم وظائف الجسم.. أما الجهاز العصبى (Nervous System) فهو يتضمن جهاز الدفاع العصبى المركزى، والحبل الشوكى، مع فروعها من الأعصاب المتشعبة فى جميع أجزاء الجسم، وهو مكون من خلايا تبعث برسائل فى شكل نبضات كهربائية، وبذلك يتحكم الجهاز العصبى فى جميع حواسنا، ويمارس عملية الإشراف والتوجيه لكافة أعضاء الجسم.

استخدم حكم الطغيان والاستبداد وسائل عديدة للسيطرة على المعارضين خلاف العقاب البدنى والتعذيب الجسدى، ومن هذه الوسائل عزل الفرد عن الحياة العامة بزجه فى زنانة بعيداً عن كل مصادر المعلومات وصور الحياة العادية لمدة طويلة، فيشعر الفرد بالوحدة والقلق ويناله الضعف والوهن، ويسهل حينئذ السيطرة عليه. ويستخدم الإجهاد والجوع وعدم النوم أيضاً لدفع المعارض إلى الانهيار والجنون، أو إلى الانتحار حيث يحدث تشويش لملكاته العقلية ويفقد الإحساس والتمييز.

يعتبر الإذلال وسيلة أخرى للضغط النفسى مارستها نظم ديكتاتورية كثيرة، فالاعتداء الجنسى على الزوجة أو الابنة أو على الفرد نفسه يحطم من كبريائه ويحوله إلى عبد ذليل، خانع مطيع.. وفى هذا المجال برع واشتهر العالم الروسى بافلوف فى استخدام الوسائل الفسيولوچية للسيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم، بعد إجراء تجارب على الكلاب بتعريضها لتوترات مؤلمة، وظهور نظرية "الفعل الشرطى المنعكس" كنتيجة لمؤثر خارجى مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام مع اقترانه برنين جرس. مع تكرار التجربة، ارتبط سيل اللعاب برنين الجرس دون ظهور الطعام.

بدأ بافلوف تجاربه على الكلاب، وبعد أبحاث امتدت إلى ثلاثين عاما توصل إلى أنه يوجد أربعة أمزجة أساسية فى الكلاب تقترب كثيراً من مثيلاتها فى الإنسان:

١ - النمط شديد الإثارة (Strong Excitatory):

إذا تعرضت الكلاب من هذا النوع إلى الإثارة فإنها تتحول إلى درجة كبيرة من الوحشية ويحدث لها ردود أفعال تجعلها غير قابلة للانقياد.

٢ - المزاج النشط (Lively Sanguine):

يتصف هذا النوع من الكلاب بمزاج أكثر اتزاناً، فعندما تتعرض الكلاب من هذا النوع لمؤثرات خارجية، فغالباً ما يمكن السيطرة عليها إلا أنها فى بعض الأحيان تسلك سلوكاً عدوانياً.

٣ - المزاج الوديع (Imperturbable):

يقابل هذا النوع من الكلاب المنبهات بسلبية.

٤ - المزاج الضعيف المكبوت (Weak Inhibitory):

يميل هذا النوع من الكلاب إلى السلبية الزائدة وتفادى المنبه، فإن أى ضغط يتعرض له يسبب فقد توازنه وتوقف وظائف مخه.

تم تطبيق أبحاث بافلوف على الإنسان، إما باستخدامها فى تهدئة الفرد المتوتر عصبياً ونفسياً، أو بخلق التوتر للفرد المعارض حتى يسهل استسلامه والسيطرة عليه، وإخضاعه للتوجيهات، انتقد بعض العلماء أعمال بافلوف من منظور أنه من غير الممكن محو كل شيء من العقل، وتغيير الشخصية تغيراً شاملاً بالتعرض للضغوط.

طرح أستاذ علم النفس السلوكى الأمريكى ب. ف سكينر قضية تشكيل البشر (People Shaping) بتسائله: « ترى ماذا يمكن أن يصنع الإنسان بأخيه الإنسان إذا ما صار بين يديه عجينة - كتلة رخوة - سهلة التشكيل والتغيير»، وهل الإنسان فعلاً سهل التشكيل كما يرى الكاتب الأمريكى فانسى بكارد فى قوله: « إذا أمعنا النظر فى معظم الافتراضات والإطروحات العلمية المذكورة للصور التى يمكن أن يكون عليها الإنسان ، لبرز خيط واحد مشترك، هو نفس الخيط الذى ظهر أثناء دراسة المحاولات الرائدة فى مجالات بيولوچيا التناسل والجراحات العقلية، وهو خيط يفضى إلى افتراض سائد مفادة أن البشر ليسوا أكثر من مخلوقات لينة طيعة، مرنة بدرجة لا حد لها، أقرب إلى المادة الرخوة، سهلة التشكيل كالصلصال، وبالتالى مادة خام صالحة للتحوير والتبديل والتطوير سواء لما فيه صالح الإنسان ذاته، أو حتى لإجباره على المواءمة مع الآخرين، وقد ثبت أن من يصلح عادة للتشكيل وفق القوالب المرغوبة يكون أقل الناس تماسكاً، وأكثرهم قياداً، وأسلسهم انقيادا».

تعتبر الهندسة الوراثية أو هندسة الجينات علم حديث يمكن استخدامه فى العديد من المجالات التى تختص بالإنسان وسلوكه وانفعالاته.. عكف علماء الهندسة الوراثية حديثاً على دراسة الجين (Gene) الذى ينقل الصفات الوراثية من الجدود

والأباء إلى الأبناء، يتكون الجين من بروتين ومادة تسمى(De Oxyribo Nucleic Acid) أو ما تسمى اختصاراً بالدنا (DNA) ، والتى تعتبر المادة الوراثية لجميع صور الحياة، يتكون الدنا من نيوكليوتيدات تحتوى على ثلاث مكونات وهى السكر الخماسى (دى أكسى ريبوز) ، ومجموعة فوسفات، والقواعد النتيروچينية. يوجد الدنا فى النواة فى صورة صبغيات، وكل صبغى يحتوى على جزىء واحد من الدنا، وتحتوى الخلية الجسدية للإنسان على أربعة وستون صبغى.

استخدمت هندسة الجينات أو ما يسمى بجينوميا الجريمة للتعرف على السلوك العدوانى للإنسان، وقد أظهرت الدراسات أن بعض الناس لديهم استعداد وراثى للعدوان، وأن قليلاً من التوتر أو الإثارة الخارجية تجعلهم يميلون إلى العنف والعدوان، أجريت كثيراً من الأبحاث لتغير السلوك الجينى العدوانى من خلال ثلاث تقنيات ، تختص الأولى بإدخال جينات معدلة لسلوك الجينات العدوانية عن طريق إدخال جينات لها القدرة على العمل العكسى للجينات ذات السلوك العدوانى، وبذلك يمكن الوصول بالسلوك الجينى إلى حالة التوازن، أى رد فعل سوى فى حالة الإثارة الخارجية المسببة للسلوك العدوانى . . أما التقنية الثانية فهى خاصة بإدخال جينات كمون وراثى بهدف إجبار الأطقم الوراثية ذات السلوك العدوانى على الدخول فى مرحلة كمون وراثى لمدة معينة. وتختص التقنية الثالثة باستبدال الجينات ذات السلوك العدوانى بجينات ذات سلوك سوى، حيث يتم استئصال الجينات ذات السلوك العدوانى باستخدام الجراحة الجينية، ثم يتم إدخال جينات ذات سلوك سوى تؤدى نفس وظائف الجينات المستأصلة مع خفض أو القضاء على السلوك الغير سوى.

الإنسان . . ما هو كطبيعة وسلوك؟ هل هو ذلك المخلوق الذى تحركه غرائزه كما يراه عالم النفس سيجموند فرويد، أو هذه الآلة المعقدة التى تحكمها الأنانية والعدوانية كما وصل إليه الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز، أو الإنسان هو كما يراه الفيلسوف الإنجليزى جون لوك ككائن عاقل مسئول عن تصرفاته ومتسامح مع الآخرين وقادراً على تصريف أموره إلى أن يثبت العكس، أو هو ذلك الكائن

(السوبر) الذى تمناه الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه، إذا كان الكاتب الأمريكى فانس بكارد قد سرد ست صور للإنسان فى كتابه "أنهم يصنعون البشر" ففى الإمكان ضم الصور المتشابه للوصول إلى أربع صور رئيسية بالإضافة إلى صورة خامسة مجمعة (الإنسان كمنظومة) هى أقرب إلى الواقع، لذلك الإنسان الذى عاش فى حيرة للبحث عن ذاته.

١ - الإنسان أسير عناصر الوراثة :

والذى تحركه غرائزه الفطرية الموروثة، داخله ذلك الوحش القبيح الأنانى العدوانى الذى قد يضطر لمسايرة الجماعة لتحقيق مطالبه وإشباع احتياجاته ، ومن أجل ألا يعيش وحيداً، وبداخله أيضاً ذلك الملاك الأليف المتسامح، الذى قد يضطر إلى أكل لحم أخيه من أجل حب البقاء، ومن أجل إثبات ذاته الفردية الأنانية.

٢ - الإنسان ناتج البيئة :

ويأيد هذا الرأى معظم علماء النفس السلوكى، الذين يرون أن سلوك الإنسان داله فى تراكم تجارب سنوات حياته، ويحركه تفاعل المؤثر والظروف، مع طبيعته التى تكونت من تجاربه السابقة.

٣ - الإنسان الخير :

القادر على التحكم فى مصيره، والذى يتمتع بإرادة حرة بالرغم من عوامل الوراثة والغرائز والبيئة. . ذلك الإنسان هو الذى يمكن أن يدرك أبعاد الموقف الذى يوضع فيه، ويتخذ القرار المناسب من بين البدائل المختلفة المتاحة لديه. . يقف وراء هذا الرأى الفلاسفة الوجودين مثل جان بول سارتر.

٤ - الإنسان الآلة :

الذى يمكن تعديله أو ترميمه ، أو السيطرة عليه من خلال المعالجة الكيميائية، أو الهندسة الوراثية، أو العمليات الجراحية ، ويمكن وصف الإنسان بالآلة القابلة للبرمجة لتعديل سلوكه مثل الحاسب الآلى الذى يمكن التحكم فى أدائه عن طريق مكوناته المادية (Hardware) ، أو المكونات غير مادية (Software).

٥ - الإنسان كمنظومة (Human - being System) :

الذى يتفاعل فيه عناصره، التى تتكون من الغرائز الفطرية، وتجارب مكتسبة، وبيئة غير ثابتة، وثقافة متنوعة، وتباين وتضاد، وتطور تاريخى وحضارى، ومؤثرات خارجية، وظروف ديناميكية ، وكيمياء داخل الجسم تغيرها الانفعالات والزمن، وقدر خارج عن إرادة الإنسان، واختيار محكوم غير واضح حدوده. تنبع هذه المنظومة (النظام) من منظومة أخرى أعم وأشمل هى المنظومة الكونية أو النظام الكونى (Universe System) .

مازال طريق البحث طويلاً، ولا يدرى الإنسان ما سوف يأتيه المستقبل، فهل سيتم استعباد فرد أو شعب عن طريق التغير فى الجينات، أو سيتم استئصال الجينات ذات السلوك العدوانى فيصبح الجميع عبيد أو يتم استئصال الجينات ذات السلوك الخنوعى فيتحول الجميع إلى أسياد، الأفضل فى كون قائم على التضاد والتباين أن يظل نظامنا كما هو ، يوجد كل من السيد والعبد وبينهما السيد العبد يلعب على طرفى النزاع، فلن يجنى الإنسان من المثالية إلا الملل والرتابة.


السيد العبد

السيد العبد

ليس فقط من أجل إشباع الاحتياجات الأولية يعيش الإنسان، إن الفيلسوف الألمانى هيجل يرى أن الإنسان يبغى من الآخرين الاعتراف به ككائن حى له كينونته وكرامته وينشد منهم الاحترام والتقدير حتى وإن أدى ذلك إلى الخوض فى صراع من أجل أن ينال هذا التبجيل، مضحياً بأهم الغرائز وهى غريزة حب البقاء. قديماً نشأ التحدى بالسيف أو بالمسدسات من أجل.إحساس أحد المتخاصمين أن كرامته قد أهينت، قد يتصارعان حتى الموت من أجل خطأ قد يراه البعض منا اليوم أنه لا يستحق الاعتذار.. قد خُلقت الكرامة والحمية والكبرياء داخلنا، لقد وصفها الفيلسوف الأغريقى أفلاطون بالقوة الغضبية أو الثيموس (Thymos) .. هذه القوة هى التى تغذى فينا الشجاعة والحماسة والإقدام من أجل أن يعرف الملأ أنه يوجد إنسان يحيا ويجب احترامه، ويجىء دور العقل الذى يميز ويخطط ويقارن بين أفضل الطرق لنيل التقدير، ويختار السلوك المناسب لاكتساب احترام الآخرين، أنها حمية السيد الذى يخوض الأهوال والمخاطر.

يرى الكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابة "نهاية التاريخ وخاتم البشر" أن الحاجة إلى الاعتراف والتقدير هى الحلقة المفقودة بين الاقتصاد الليبرالى والسياسية الليبرالية، فالرغبة والعقل يفسران جوانب كثيرة من الحياة الاقتصادية بوجه عام، غير أنهما لا يفسران النضال من أجل الديمقراطية الليبرالية الناشئة من قوة الغضب من أجل الحصول على الاعتراف والتقدير.

الإنسان عبر حياته فى هذا الكون يصارع من يخالفه فى جميع مجالات الحياة، فى العمل والعقيدة والثقافة والفن والأدب والعلم وخلافه، من أجل أن يثبت للآخرين أنه إنسان جدير بالاحترام وأن رأيه على صواب .. تتجمع الآراء والفلسفات المتقاربة ، وتتكون إيدلوچيات وسياسات، منها رأسمالية أو اشتراكية، منها ديمقراطية أو دكتاتورية، ومنها انفتاح أو انغلاق ، وتختلف الجماعات أو الدول

وتنشب الحروب من أجل إجبار طرف بالاعتراف وبقبول الرأى الآخر، قد يكون كل منهما على حق، فالمعايير نسبية، ولكن هذه هى طبيعة الإنسان السيد الذى يختلف عن طبيعة العبد الذى يستسلم مبكراً ويتنازل عن رأيه بدون صراع.

لم يكن نيتشه هو الفيلسوف الوحيد من الفلاسفة الألمان الذى حث على الخوض فى المخاطر حتى ينال الإنسان الحرية والتقدير، هذه الفلسفة اللاشرقية التى نبعت من بلاد الأغريق وتبناها نيتشه، وحاولت تطبيقها الحركات الثورية المعاصرة فى آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وفى أوروبا الشرقية، هذه الفلسفة التى كانت سبباً فى نشوب كثير من الحروب وقتل ملايين من البشر، سار على هداها هتلر وموسولينى فدمرت أوروبا وبلاد أخرى عديدة.

اختلف هيجل عن كارل ماركس فى أن الفوارق الطبقية لا تقوم على أساس اقتصادى، كان هيجل مثل نيتشه يرى أن المجتمع ينقسم إلى سادة على استعداد للمخاطرة بحياتهم من أجل تقدير الآخرين لهم، وعبيد ليس عندهم هذا الاستعداد للمخاطرة ويستسلمون بسهولة لأقدارهم، فى الواقع أن كل من العاملين هامين فى تكوين قدر الإنسان، فإذا كان الإنسان الميسور مادياً والذى أشبع رغباته واحتياجاته الأولية من طعام وشراب وملبس ومسكن يتطلع إلى التقدير والتبجيل، فإن الإنسان المعدم الذى لا يكاد يفى بقوت نفسه أو أسرته لا يتقد ذهنه حتى مروراً عابراً فى التفكير فى المطالبة بالاحترام والتبجيل بينما احتياجاته البيولوچية تصرخ من آلام الجوع والظمأ ومعاناة برد الشتاء القاسى.

كتب د. إمام عبدالفتاح فى واحد من أوفى الكتب عن الطغيان والعبودية "الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى" سرد فيه تاريخ العبودية.. فمن العهد الأغريقى ذهب الفيلسوف أرسطو إلى أن الناس بطبيعتهم يمكن تقسيمهم إلى سادة وعبيد، وأن بعض الأجناس رقيق بالطبع والبعض الآخر أحرار بالطبع، وأن الشرقيون بطبيعتهم عبيد، يعشقون الطغيان، ويستمتعون بالقسوة، ويخلقون الطاغية إن لم يكن متاح.. وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ذهب

مونتسكيو إلى أن الاستبداد والاستعباد نظام طبيعى بالنسبة للشرق.. أما هيجل فكان يعتقد أن الطغيان الشرقى يرجع إى أن الشرقيين لم يتوصلوا إلى معرفة أن الروح أو الإنسان كائن حر وعلى ذلك فأنهم لم يكونوا أحرارا، وكل ما عرفوه أن شخصاً معيناً حر وهو الحاكم الطاغية وبقية الشعب عبيد له بالطبيعة.. وقد ذهب د. إمام إلى أن جميع النظريات التى تفرق بين البشر وتتحدث عن طبيعة خاصة عند الشرقيين أو غيرهم هى نظريات خاطئة، ولكنه يرى أن الشعوب التى اعتادت حكم الطغاة القائم على الاستعباد لعدة آلاف من السنين قد نجد لديها استعداداً للتسليم بهذا الشكل من أشكال الحكم أسرع من غيرها.. واستطرد د. إمام فى كتابه عن الطاغية :« لا شك إن الأمم الشرقية أصبحت تنشد الحكم الاستبدادى، لطول ألفها له، ومازال أبناءها يتسابقون فى تدبيج القصائد التى تتغنى بأياديه البيضاء على الناس، ولم يعد الحاكم الشرقى يجد حرجاً فى تسخير الصحافة، والإذاعة، والتليفزيون، وجميع وسائل الإعلام للحديث عن أمجاده وبطولاته وانتصاراته، حتى لو أنه انهزم هزيمة منكرة - ومن مظاهر التقديس للحكم أن تتصدر صوره جميع الصحف، وأن تكون تنقلاته وأخباره - حتى لو كانت مما يمارسه رئيس الدولة فى حياته الروتينية المألوفة - هى الخبر الأول فى جميع نشرات الأخبار).

ذهب آدم سميث رائد التحرير الاقتصادى فى القرن الثامن عشر، فى نظرته إلى الرق من الوجهة الاقتصادية إلى أن:« العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من ذلك الذى يؤديه العبيد» ، فبالرغم من دفاع آدم سميث عن الملكية الخاصة لأنها حافز للجرأة والمغامرة، وإيمانه بأن الأعمال المتاحة والأجور المدفوعة سيتوقف أولاً وقبل كل شىء على تجميع رأس المال واستخدامه، فقد دعى سميث إلى رفع الأجور باعتبار هذا الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء.

بالرغم من إيمان الفيلسوف الفرنسى مونتسيكو فى القرن الثامن عشر بالنظام الطبيعى الذى يميز الأفراد بسبب المولد أو الثروة، إلا أنه هاجم الرق وفند مبرراته ، فقد رأى مونتسيكو أن العبودية تخلق فى العبد جميع أنواع العادات السيئة، كما يفقد العبد فى عبوديته جميع فضائل الأخلاق حيث يتحول إلى إنسان - أو حيوان كما

يناديه بعض الفلاسفة – قاسى، شهوانى، وجائر، فند مونتسيكو مصادر الرق الثلاثة وهى الأسر فى الحرب، أو بيع الحر نفسه، أو بيع الأسرة لأحد الأبناء نتيجة للفقر. . ففى الحرب يجب على المنتصر فقط أن يطمئن ألا يعود الأسير إلى إيقاع الضرر به لا أن يتخذه كعبد، أما بيع الحر نفسه أو لأحد أبنائه فهذا لا يجوز نظراً لأن عملية البيع تستلزم ثمناً وإذا باع الحر نفسه فإنه يصبح عبداً هو وماله ملكاً للسيد أى تنتفى صفة العملية التجارية، وأيضاً لا يستطيع الإنسان بيع ابنه لأن الابناء وإن كانت مسئوليتهم تقع على الأب فهذه المسئولية تنتهى ببلوغ الابن أو الابنة السن القانونية.

الخوف والقلق وعدم الإحساس بالأمان صفات تلازم السيد العبد طوال حياته، أن جرأة وشجاعة السيد تحميه من الخوف والقلق من المجهول، فالسيد لا يبالى بما سيأتى به القدر طالما سلك طريق المخاطر والأهوال، أما العبد فقد رضى بعبوديته وقنع بحياته ، يخدم سيده من واقع فلسفة العبيد، يعينه الصبر والإيمان على تحمل مشاق الطريق الذى اختاره.

القلق آفة العصر ، صفة الإنسان الذى يتأرجح ما بين السيد والعبد، هو شعور يمتلك الإنسان فيتوقع الشر دائماً ويعيش حياته متشائماً، يتشكك فى من حوله وفى كل أمور حياته خوفاً من أن يصيبه الضرر من أن يعيش كعبد، فسمة السيادة مازالت جزء فيه وخوفه من العبودية تلازمه وتكدر عليه معيشته، فيصاب بأمراض نفسية وعضوية. . الحياة مليئة بالمفاجآت، والسيد العبد وإن كان لديه بعض من القوة فهو ليس فى قوة السيد الذى يتحمل المشاق والصعاب، إذا كان القلق مفيد أحياناً كونه حافزاً لبذل مزيد من الجهد والعمل وأخذ الاحتياطات اللازمة عند اتخاذ القرار إلا أنه يجعل الإنسان لا يستمتع بحياته ، ينشد الأمان فى جمع المال والتقتير على نفسه وعلى الآخرين، يتنازل عن جزء من كبريائه وخصوصيته من أجل صحبة يشعر معها بالأمان، فصورته كعبد تظهر دائماً أمامه تؤرق منامه، وتفسد سعادته فى أوقات السيادة.

يمكن تلخيص ما خطه فوكوياما فى سرده لفكر الفلاسفة السابقين عن العلاقة بين السيد والعبد والتى جاء ذكرها فى كتابه عن نهاية التاريخ فى النقاط التالية :

- يذهب هيجل إلى أن الدولة العامة والمتجانسة ستحقق تسوية تامة للتناقض فى العلاقة بين السيد والعبد يجعل العبيد السابقين سادة أنفسهم، ولكن ستظل بقايا من وصف حرية السيد وعمل العبد .

- ينكر كارل ماركس الاعتراف العام من السيد للعبد لوجود الطبقات الاقتصادية .

- يرى نيتشه أن خاتم البشر هو العبد الظافر، وأنه ليس هناك فارق كبير بين هيجل وماركس حيث أن هدفهما واحد، وهو مجتمع يجسد الاعتراف العام .

- يمكن للضعفاء من خلال الفكر الدينى التغلب على الأقوياء متى تجمعوا معاً فى قطيع، واستخدموا سلاحى الذنب والضمير .

- إن نموذج المواطن فى الديمقراطية الليبرالية هو الفرد الذى تخلى - وفق تعاليم هوبز ولوك- عن إيمانه الفخور بتفوقه فى مقابل حفظ الذات والراحة .

إن الاتجاه العام (Trend) لمسار التاريخ يتجه الآن أكثر إلى الإنسان السيد العبد، تطحنه متطلبات حياة الرفاهية الاستهلاكية، ويثور بدون إراقة الدماء، قد ينافق ويداهن حتى يعلو (علشان ما نعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى، نطاطى، نطاطى) ، ويفرغ شحنة حمية كبريائه المهان فيما هو أقل منه، فتنشأ مشاجرات خفيفة نسبياً تمتص انفعالات نابعة من غرائز متعددة ومتناقضة تفرض علينا طبيعة السيد العبد .

انتهج الإنسان الحديث أسلوب المراوغة وفن التمويه فى معاملاته مع الآخرين، وقد ورث هذا السلوك من العبودية القديمة التى حتمت عليه أن يراوغ السيد المالك حتى لا ينال عقابه، فإن لم تساعد الظروف والأحداث أن يباشر المرؤوس أسلوبه فبإمكانه أن يراوغ الرئيس للحفاظ على العلاقة التمثيلية القائمة بين الرئيس

والمرؤوس. . لبس الرئيس رداء السيد المتعالى، وارتدى المرؤوس جلباب العبد الخاضع، ويمثل نفس السيد دور العبد لمن أعلى منه، وتتواصل السلسلة من أعلى الهيكل الوظيفى الهرمى إلى قاعدته. وتستمر اللعبة حتى يفقد السيد أو الرئيس منصبه، فينصب عليه ازدراء واحتقار مرؤوسيه ويبدأ نفس سيناريو النفاق والمراوغة مع الرئيس الجديد . . طبقت الشعوب المستعمرة والأقليات نفس السياسة للمعايشة مع المستعمر الطاغى أو مع الفئة المسيطرة على الحكم.

بزغت وترعرعت فى العهد الحديث الثقافة المتوارية، أو كما أسماها العالم الاجتماعى جيمس سكوت بالتراث المكتوم ، وهى ثقافة نابعة من طبقة الأرقاء والعبيد، والطبقات الدنيا والمنبوذة من جميع الحضارات وعلى مدى العصور، ثقافة بنيت على المهادنة والخديعة والنفاق، والسخرية من الطبقات الأعلى، المتسيدة والحاكمة ، كما تقوم هذه الثقافة على الرشوة والابتزاز والمراوغة فى الحديث وفى الأفعال، تحث الجهلة من عامة البشر المطحونين على التمرد والعصيان بينما يتظاهر المحرضون بالخضوع للسلطة الحاكمة، ثقافة قائمة على كبت الغضب ، والتفاخر بالأخلاق الحميدة، مواريين الحقد الكامن، والرغبة فى الانتقام داخل الذات المترقبة الفرصة السانحة للارتقاء والسيطرة وسحق الأقل شأناً ، وأولهم من قدم يد المساعدة ليصعد ويتحكم على شاكلة السيد العبد. . هذا الإنسان الحديث، الملئ بكل مساوئ وجميع شرور السيد والعبد، يملك أحقر السلوك، بينما يتغنى بالصفات الكريمة التى لايملكها ، يصدقه الكثيرون، وما أكثر الجهلة والأفاقين المنافقين.

لقد صارع الإنسان العبد على مر العصور لينال حريته، قبل ثورة سبارتكوس قائد العبيد فى العصر الرومانى القديم وحتى ثورة الأمريكى الأسود فى القرن الماضى ومابينها، وجدت أديان سماوية وغير سماوية تنصف العبد والضعيف، قامت ثورات فى جميع أنحاء العالم الحديث للقضاء على الاستعمار والإمبريالية ، بزغت إيدلوچيات حديثة تتكلم عن الاشتراكية والشيوعية واستغلال صاحب رأس المال للعامل أو الفلاح الضعيف أى استغلال السيد للعبد، وطبقت هذه الإيدلوچيات وأنهار بعض من هذه الأنظمة. . يناضل العبد منذ قديم الزمن لنيل حريته ليصبح

سيد نفسه، ولكن إذا سادت الديمقراطية والمساواة والحرية، وانتهت الفروق بين الطبقات فهل سيصبح الإنسان سعيداً. . ستقضى الحياة بدون ألم الصراع على إبداع الإنسان وإلهامه، سوف ينتهى الفن ويضمحل التأمل وستصبح الفلسفة من مخلفات التاريخ.

إن القناعة والرضا تنبع من داخل الإنسان، كما ينبع تحفز عدم الرضا من الداخل أيضاً، لقد وضع فينا كجزء من نظام بشرى القناعة والرضا وكذلك التمرد على الوضع الذى نحن فيه، نظام قائم فينا من أجل أن نشعر بالسعادة التى تعقب الشقاء، لكى نحس بالراحة التى تعقب التعب والكد، فوجود طرف يلزم وجود طرف آخر وإن كانا الطرفين هما النقيضين، نظام إنسانى (Human System) خلق فينا كما خلق ما حولنا، فنحن جزء من نظام كونى لا يعرف آلياته الكاملة المتكاملة إلا اللّه ، وما نحن البشر إلا جزء صغير جداً من هذا النظام الكونى، وما الفرد إلا جزء غاية من الضآلة فى هذا النظام، ولكن وإن صغر الجزء إلا أنه يعتبر جزءاً من نظام يتكامل النظام به.

هل تثور الدولة العبد على استعبادها، ما الثورات العديدة التى حدثت خلال القرن العشرون إلا ثورات دول مستعبدة أو كانت تسمى دول مستعمرة. . لقد انتهى الاستعمار الأمبريالى التقليدى، ولكن حدث غزو آخر جديد عن طريق هيمنة رأس المال والتفوق الاقتصادى والتكنولوچى، فالصراع بين السيد والعبد لم ينتهى ولن ينتهى، فالسيد داخلنا والعبد أيضاً داخلنا، والإنسان ذاته هو الذى يرضى أن يحيا كالعبيد أو يثور على وضعه ويصارع، طمعاً لأن يصبح سيداً، فيدخل فى صراع آخر مع العبيد، فالإنسان كعبد يصارع وكسيد يصارع.

صارعت القبيلة فى العصور المادية ومازالت الدول تصارع من أجل السيادة والسيطرة أو من أجل الاستغلال الاقتصادى ، نظام قائم على الفروق التى تولد الصراع.

إذا انتشرت الليبرالية والديمقراطية ، وانتشرت مكارم الأخلاق بين الناس وانتهت إلى حد ما الضغينة والحقد والكره والتنافس بين الأفراد وبين الجماعات، وخف تأثير الثيموس والحماسة الزائدة والزود عن كبرياء لا يعنى شيئاً إلا لصاحبه، فسوف تتحول سنوات عمر الإنسان إلى عبء ممل وسأم كئيب، ولسوء حظ الإنسان سيتقدم عمره أيضاً بتقدم علوم الطب والجراحة ، أى ستطول معاناة الإنسان من رتابة الحياة حتى وإن لازمتها السكينة والعيش بدون صراع أو نزاع. . لن تستقر الحياة الكونية كما تخيلها نيتشه أو هيجل أو الفلاسفة المثاليين ، بأن يسود الإنسان القوى أو أن تستقر الحياة المثالية من التعاون المتبادل بين الدول وبعضها أو بين الفرد والآخرين. . من الأرجح أن يتأرجح الخط العام المستقبلى للتاريخ ما بين سيادة الأسياد وثورات العبيد، مع وجود السيد العبد على مدى الزمان، ينتهز الفرصة للصعود، ولكن سيواجه مقاومة من كل من السيد والعبد، فالسيد لا يطيقه لأنه يعتقد أن هذا السيد العبد مازال بداخله طباع العبيد، كما أن العبد لن يأمن له. . لن يزداد مقدار التأرجح فقد كابد وعانى العنصر البشرى كثيراً من ويلات الحروب وويلات الثورات الدموية. . سيستمر الخط المستقبلى للتاريخ فى نفس الاتجاه ولن تحدث الدورة الكونية إلا بوقوع كارثة على الأرض أو تأثير خارجى من الفضاء الكونى.

السيد العبد هو الإنسان المستبد الطاغية (Tyrant) الذى يعامل رعاياه كالعبيد، وتعريف الاستبداد هو خضوع المواطنين للحاكم بإرادتهم ، لأنهم عبيد بالطبيعة كما ذهب أرسطو فى تعريفه للاستبداد ، والفرق بين المستبد والطاغية هو أن المستبد ذلك الإنسان الذى ينفرد برأيه، لا يؤمن بالديمقراطية أو بالشورى، قد يصبو من استبداده صالح الرعية ولكن غالبا ما يتحول الاستبداد إلى طغيان. . أما الطاغية فهو الإنسان المسرف فى الظلم والعدوان، يفتك بالرعية ويستعبدها.

السيد العبد هو الإنسان الذى ينشد عملية التوافق (Accommodation) يساوم ويفاوض، ويتطلع إلى التسامح، تختلف المساومة (Bargaining) عن المفاوضة (Negotiation) ، فهدف المساوم هو الحصول على أكبر مكسب ممكن من الصفقة

التى يتعامل معها، يبخس من قدر الطرف الآخر حتى يكبده أكبر خسارة ممكنة، فطباع المساوم أقرب لطباع العبيد فهو ينتهز الفرص لنيل غرضه، أما التفاوض فهو الأسلوب المتحضر لتسوية أى خلاف بين طرفين، والمفاوض السوى المعتدل هو الذى يتحرك فى منتصف المسافة، ولكن قد يتصف المفاوض بصفات الأسياد بكونه قوياً متشبثاً برأيه يريد أن يملى شروطه على الطرف الآخر، أو قد يكون له طباع العبيد، سهل الانقياد والاستسلام أو خادع مكير.

السيد العبد هو الإنسان النفعى الوصولى؟ الذى ينافق ويداهن، يتظاهر بصفات ليست فيه، يسلك كل الطرق للوصول إلى أهدافه، من رياء وخديعة، يتنازل عن كرامته فى سبيل مكسب مادى، أى يسلك مسلك العبيد حتى يحصل على مراده ثم يتحول هذا العبد إلى طاغية مستبد، لا يهمه إلا مصلحته الخاصة.

السيد العبد هذا الإنسان الذى يعيش فى عصر العولمة، واقتصاديات السوق، يعمل فى شركات عملاقة متعددة الجنسيات، عصر يتحكم فيه اتحاد رجال الأعمال مع رجال الإعلام، عصر سوف تنتهى فيه علوم الفلسفة والفن الرفيع، عصر يستطيع الفرد فيه أن يدير استثماراته من منزله أو مكتبه من خلال جهاز كمبيوتر، عصر سهل الحصول فيه على المعلومات، وسائل الاتصالات والمواصلات فيه مريحة وسريعة، يستطيع التنقل من بلد إلى آخر فى زمن قصير، عصر من السهل فيه للإنسان أن يصعد ومن الأسهل أن ينهار، نظام جديد مادى يتحكم فيه نظم عملاقة، جديدة وبعيدة عن ثقافاتنا الشرقية العتيقة.

عندما عاش الإنسان الأول منفرداً ، يشبع احتياجاته الأولية من قوة عضلاته فى صيد الحيوانات أوقطف الثمار والفواكه، لم يكن يعرف معنى الطغيان، فالطغيان يحتاج لأكثر من فرد (سيد وعبد). نشأ الطغيان عندما اكتشف هذا الإنسان الأول فروق القوى الجسدية لأفراد جنسه البشرى، فما يستطيعه إنسان من القيام بأعمال مثل صراع حيوان مفترس وهزيمته قد لايمكن آخر القيام به. . لما استخدم الإنسان الأول عقله مع قوى جسده، أيقن البعض إمكانية استخدام البعض الآخر أو سلب ما قد اصطادوه أو السطو على مأوى استغرق منهم أياماً ليتم تجهيزه. . عاش الإنسان الأول فى ظل ظواهر طبيعية مثل البرق والرعد والزلازل ، لم يستطع بتفكيره المحدود إيجاد تفسير لها، كما رأى الموت فى أقرانه ، ولم يستطع الإجابة على أسئلة كثيرة راودته.

لماذا حدث هذا التغير من حركة وحيوية إلى سكون وعدم ؟

هل هذه هى النهاية أم سيكمل الإنسان الساكن مسيرته بعد فترة من الزمن؟!

وأسئلة أخرى كثيرة مرت بخاطره لم يجد لها إجابة. . فتفتق ذهن ألمعى. . مقارنة لأقرانه فى ذلك الوقت - بفكرة الإلة القوى بل والأقوى من البشر، الذى يستطيع القيام بكل هذه الأعمال من موت إلى رعد وبرق، ثم وجد الإنسان الأول أن بعض هذه الأعمال تعود بالنفع له مثل شروق الشمس، وظهور القمر، وهطول الأمطار وبعض أعمال أخرى تضره مثل الموت والصواعق والفيضانات ، فسمى الأولى خيراً والثانية شراً ، وتعددت الآلهة، إله للخير وإله للشر، بل خلق الإنسان الأول بتفكيره إلة لكل ظاهرة من الظواهر الطبيعية التى شاهدها ولم يجد لها تفسيراً.

استغل بعض البشر فى العهود التاريخية الأولى فكرة الآلهة فى ربط طغيانهم واستعبادهم للضعفاء عندما ثار بعض العبيد الذين استعبدهم السيد القوى، وصبغ الاستعباد بصبغة دينية استمد منها الإنسان القوى قوى أخرى أعلى من قوته المحدودة، هذه هى القوى الغيبية وقوى ظواهر الطبيعة التى لم يجد لها عامة البشر

أى تفسير، ومن هنا ظهر الحكم الثيوقراطى (Theocracy) أى الحكم الدينى أو الحكم الكهنوتى.

تساءل د. إمام عبدالفتاح وأجاب عن سؤاله فى كتاب الطاغية: « كيف نتصور إرادتين من طبيعة بشرية واحدة ليستا على درجة واحدة، بل أحدهما تعلو على الأخرى؟ أبسط وأسرع إجابة هى: لا بد أن يكون الحكام من طبيعة غير طبيعة البشر، هكذا تصور القدماء الحاكم من طبيعة إلهية، فهو إله على الأرض أو هو ابن الإله. ومن هنا جاء سمو إرادته، فهى سامية لأنها إرادة إلهية عليا، ثم تدرج الأمر بعد ذلك إلى أن الله يختار الحاكم اختياراً مباشراً ليمارس السلطة باسمه على الأرض.. وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن التفكير قد اتجه أولاً إلى تأسيس السلطة على أساس إلهى، فقيل أن السلطة مصدرها الله يختار من يشاء لممارستها، ومادام الحاكم يستمد سلطته من مصدر علوى فهو يسمو على الطبيعة البشرية وبالتالى تسمو إرادته على إرادة المحكومين إذ هو منفذ للمشيئة الإلهية». لقد قامت الحضارات القديمة فى مصر وبابل وفارس والهند والصين بناء على نظرية السلطة الإلهية التى يحكم من خلالها الملك أو الامبراطور أو الفرعون. حتى لما غزا الأسكندر الأكبر الشرق تأله، وأفضى عليه كهنة مصر لقب (ابن الإله آمون).

المساواة هى حق الفرد فى أن يتساوى مع باقى أفراد المجتمع فى حقوقه وفى واجباته، أما الحرية فهى تعنى حرية الفرد من سيطرة الحكم فى الحقوق المدنية وفى الحقوق الدينية والحقوق السياسية.. تعنى الديمقراطية حق كل المواطنين فى المشاركة فى النشاط السياسى للدولة، فالديمقراطية هى حكم الشعب بالشعب إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

هل الديمقراطية الليبرالية هى الأصلح للمجتمع، ففى رأى الكاتب الأمريكى فوكوياما أنه ليس بالضرورى تعميم المناسب أو غير المناسب لكل المجتمعات طالما تختلف الثقافات: « إن الديمقراطية الليبرالية ليست بالضرورة أصلح نظام سياسى لحل الصراعات الاجتماعية، فقدرة الديمقراطية على حل الصراعات حلاً سلمياً

تكون فى أقوى حالاتها حين تكون هذه الصراعات بين ما يسمى - بجماعات المصالح - المتفقة فيما بينها سلفاً على القيم الأساسية أو قواعد اللعبة، وتكون الصراعات فى طبيعتها اقتصادية فى المقام الأول، غير أن ثمة أنواعاً أخرى من الصراعات غير الاقتصادية أصعب بكثير، وهى المتصلة بمسائل مثل المركز الاجتماعى الموروث أو الجنسية مما لايسهل على الديمقراطية حلها حلاً مرضيا».. قد تفى الديمقراطية الليبرالية بمتطلبات مجتمع غربى ولكن المجتمع الشرقى القائم على كبير العائلة الذى له احترامه وتبجيله ، أو رئيس القبيلة الذين يدين له الجميع بالولاء والطاعة، قد لا تناسبه ديمقراطيات أو حريات الغرب، فالثقافة التى ترسخت على مدى آلاف السنين تفرض نوعاً من العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الفرد وكبير العائلة أو كبير القبيلة الذى يقوم بدور السيد، أما باقى الأفراد فهم أقل منه سيادة أو مجرد عبيد. لقد أفرزت الثورات الاشتراكية فى الدول التى فى دور التطور طبقات جديدة مميزة ومراكز قوى، بالرغم من أن شعار هذه الثورات حيال قيامها: المساواة والحرية والديمقراطية والعدل والإخاء.. إلخ.. هرع الشعب وراء شعارات بدون وعى لمعانى هذه الشعارات بسبب التخلف والأمية، واستغلت الطبقة الحاكمة الجديدة جهل الشعب ورسوخ عبوديته القديمة فى كسب ميزات مادية ، أما القليل المثقف من أفراد الشعب الذى قاوم عدم تطبيق هذه الشعارات فكان مكانه إما فى السجن أو فى مستشفى الأمراض العقلية، فتحولت الثورات التقدمية إلى ديكتاتورية طاغية.

رفض الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فى منتصف القرن الثامن عشر النظم الاستبدادية التى تفرض على البشر أن يكونوا عبيداً للحاكم المستبد، ونفى روسو أن يقوم الخضوع للحاكم على أساس الاتفاق، وكان منطقه أن الإنسان الذى يصبح عبداً لآخر لا يعطى نفسه بل يبيعها من أجل قوته أو حياته ، ولكن لا يوجد مقابل لأن يبيع الشعب نفسه للحاكم، فالحاكم أو الملك لا يوفر الطعام لشعبه، بل على العكس، فالحاكم أو الملك المستبد يستغل شعبه بالحصول على ماله وناتج مجهوده، ورأى روسو أن الإنسان الذى يتنازل عن حريته هو فى الواقع يتنازل عن إنسانيته، فلايمكن أن يوجد مقابل يعادل التنازل عن حرية الفرد، وينتهى روسو إلى أن حق

الاستعباد هو حق باطل من جميع الزوايا وبأى منطق. . لقد أورد روسو فى كتابه (العقد الاجتماعى) أن الاتفاق السليم يقوم على موافقة جميع الإرادات الحرة لكل أفراد الشعب بحيث يكون الالتزام الاجتماعى للفرد داخل الجماعة التزاما حراً ونابعاً من الذات. . كما حذر رسو من طغيان الأغلبية للأقلية الضعيفة التى قد لا تملك من أمرها شيئاً، فقد تتحول ديمقراطية الأغلبية إلى سلطة مطلقة تطبقها على الأقلية، وتصبح إرادة المجموع هى إرادة الأغلبية وليست إرادة الكل.

فى تعريف روسو للحرية كما ورد فى كتاب «الطاغية» للدكتور إمام عبدالفتاح: « لا تعتمد الحرية على أن يفعل الفرد مايريد بإرادته الخاصة بقدر ما تعتمد على ألا يخضع لإرادة شخص آخر. . أو على عدم خضوع الآخرين لإرادته الخاصة، والحرية دون العدالة هى تناقض حقيقى، فلا حرية بغير قوانين، ولا حرية عندما يكون أى شخص فوق القانون. والشعب الحر يطيع ، لكنه لا يخدم ، لديه قضاة ، لكن ليس فيه سادة ، هو لا يطيع شىء سوى القوانين، وبفضل قوة القوانين فإنه لا يطيع البشر، إن الإنسان يكتسب من المجتمع المدنى الحرية الأخلاقية، وهى وحدها التى تجعل الإنسان سيد نفسه، ذلك لأن سلوك الإنسان لو حكمته الشهوة وحدها فهذه هى العبودية، فى حين أن الحرية هى طاعة القانون الذى نلزم به أنفسنا». دافع روسو نظريا عن الحرية الفردية ووجوب الالتزام بالقوانين ، ولكن من يضع القوانين، وبأى قيم وأى معايير وضعت، فالنسبية واردة، والهوى وارد، والتفسير متعدد ومختلف، ولن يوجد أبدا مجتمع يوتوبيا، هذه المدينة الفاضلة، إلا فى مخيلة وأحلام يقظة ضعاف البشر، والمصلحين الاجتماعيين الحالمين بالمستحيل.

وفقاً للنظام البشرى الذى يكمن داخله كل شىء من المتناقضات والتضاد فإن فى داخل الإنسان الفكر الديمقراطى الليبرالى وكذلك الفكر الديكتاتورى الشمولى، ويختار الفرد الاتجاه الذى يفى بمصالحه الشخصية ومدى استفادته من النظام القائم، ومن السهل على كثير من الأفراد أن يغيروا اتجاه فكرهم إذا لم يتم الاستفادة من متغيرات الأمور، فأول من مارس الانفتاح الاقتصادى فى مصر هم من نادوا بالاشتراكية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وأصبح الاشتراكى

الأول رجل الأعمال الأول، ومن مجد الاشتراكية والشيوعية تحول إلى التمجيد بالاقتصاد الحر والرأسمالية الغربية، ومن نادى بحقوق العمال أصبح يستغنى عنهم بعد أن أصبحوا عبئاً عليه.

إن الطاغية أو الديكتاتور يجب أن يكون له أتباع أوفياء يؤمنون بشرعية حكمه، نجد هذا الوفاء فى العصابات وفى الدول الديكتاتورية، ويقوم الطاغية أو الديكتاتور بتقسيم الأسلاب على اتباعه بنسب حسب مكانة كل فرد بحيث يرضى عنها الجميع ويظلون على ولائهم إلى المتحكم الأول.. قد يكون هؤلاء الأتباع من كبار قواد الجيش أو الشرطة أو من كبار السياسيين ورجال الإعلام أو من كبار رجال المال والاقتصاد، دائماً يوجد صفوة مميزة يرتكز عليها الطاغية ليسود ويطغى، وما أكثر النفوس الضعيفة وما أكثر الدناءة والخسة فى طباع البشر، وما أسهل عمليات غسيل المخ لضعاف الناس الذين لا يتحملون مسئولية أن يعيشوا أحراراً فينقادوا وراء طاغية أو ديكتاتور، يكفيه التحكم فى أرزاق الرعية، فتنهار معناوياتهم ويسهل استسلامهم، احتياجات أساسية نابعة من غرائز كامنة ويريد المرء إشباعها، يجمع الطاغية جميع هذه الاحتياجات فى يده من خلال معاونيه فيسهل قيادتهم واستعبادهم.

يعتبر الدستور القائم على الحرية والعدل وتعدد الأحزاب، بالنسبة للمستبد الطاغية ليس أكثر من مجال للفتن والخلافات والمشاحنات والاضطرابات الحزبية التى تعوق المستبد من الانفراد برأيه، ولو أن بعض المستبدين قد استغلوا الخلاف فى الرأى كذريعة لفرض الأحكام العرفية منعا لقيام الاضطرابات وتفشى العصيان، فشعارات مثل: المصلحة الوطنية، أو المصلحة القومية أو وحدة الوطن كافية لفرض النظام الديكتاتورى، وتكتمل سطوة الطاغين على الحكم بتعيين تابعين ملوثين بالفضائح المالية أو النسوية، فالمهم أن يكون ملف التابع أسود ملوث، يسهل التشهير به والتخلص منه عند اللزوم.

يمكن تلخيص الصفات العامة للطاغية، بأنه ذلك الإنسان الذى يهدف إلى المجد والشهرة، والمال والثروة، لا يهتم إلا بمتعه الشخصية ، يستخدم أفراد لا ضمير لهم، منافقين أو مرتزقة، يعطيهم مناصب كبيرة ورواتب عالية حتى يضمن ولاءهم له، لا يثق فى إنسان حتى أبناءه فيكثر من العيون والجواسيس تجمع له أخبار الرعايا وكبار رجال الدولة، لا يعترف بقانون أو دستور فى البلاد، إرادته هى القانون، ورغبته هى الدستور، يسخّر كل موارد البلاد لإشباع رغباته وملذاته، إنسان حاقد وظالم، فيه أسوء صفات السيد مع أسوأ صفات العبد، وأخيراً هو كما كتب الدكتور إمام عبدالفتاح فى كتابه "الطاغية" :« يقترب الطاغية من التأله، فهو يرهب الناس بالتعالى والتعاظم، ويذلهم بالقهر والقوة وسلب المال حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف له وتملقه. وعوام الناس يختلط فى أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام، ولهذا خلعوا على المستبد أو الطاغية صفات الله، كولى النعم ، والعظيم الشأن، والجليل القدر». وللأسف ارتبط الاستبداد والطغيان بالمجتمع الشرقى ونظم دول الشرق الأوسط، والشرق الأدنى، وظلت هذه الفكرة فى أذهان الغرب منذ عصر أرسطو وأفلاطون حتى أيامنا الحالية ، والسؤال المحير هو: إلى متى سيظل الشرق يتسم بهذه الصفات؟ . . هل ستتغلب إرادة الإنسان الحر على ميراث تراث آلاف السنين، أم سيظل الإنسان الحر يحلم حتى ينتهى النظام البشرى؟

النفعية والوصولية :

ينتهج السيد العبد فلسفة نفعية وصولية ومادية. . إن كانت هذه الصفات قد وجدت داخل الإنسان بالفطرة إلا أن نيقولا ميكافيللى يعتبر رائد هذه الفلسفة التى سار على هداها كثير من البشر، سياسيين ورجال أعمال ومن عامة الناس. . إن فلسفة ميكافيللى الذى ولد عام ١٤٦٩ بمدينة فلورنس فى إيطاليا ،تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة فهو القائل: « ومن أراد أن ينشىء دولة، ويضع لها قوانين، فليفترض من بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل ، فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة مختفية إلى حين، فيجب أن يعزى اختفاءها إلى سبب غير معروف، ومن واجبنا أن نفترض

أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها، ولكن الزمن لن يعجزه الكشف عنها، والرغبة فى الاقتناء من الغرائز الفطرية فى واقع الأمر، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون، ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ويلامون عليه، وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل الناس قادرين على أن يعيشوا بنظام فى مجتمع هى أن يطبق عليهم القسر والخداع، ومن هذا تنشأ الدولة تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة، ووضع القواعد والقوانين، وتكوين العادات تدريجياً للاحتفاظ بالزعامة والنظام فى الجماعة البشرية، وكلما كانت الدولة أكثر نماءً قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها، واكتفى بدلا منها بالتعليم وغرس العادات ، لأن الناس يكونون فى يدى المشرع أو الحاكم القدير أشبه بالصلصال اللين فى يدى المثال».

يستكمل ميكافيللى فلسفته باستخدام الدين كأداه للتشريع وللسيطرة على الحكم، فيقول: « لم يوجد قط مشرع عظيم لم يلجأ إلى القوى الإلهية، واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريات، وإهمال هذه النظم يؤدى إلى خراب الدول، ذلك أنه إذا انعدم من بلد ماخوف الله قضى على هذه البلد لا محالة، إلا إذا دعمه خوف الأمير، وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينقص هذه البلد من خشية الله، لكن حياة الأمراء قصيرة . . وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم وجب عليهم قبل كل شىء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها» . . ذهب الكاتب ول ديورانت فى موسوعته "قصة الحضارة" ، أنه بعد أن ارتضى ميكافيللى الدين بوجه عام انتقد الأديان التى تدعو الناس الخنوع إلى الضربات طمعاً فى دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها.

يرى ميكافيللى أن سلامة الشعب أو الدولة هى القانون الأعلى: « وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها، وجب علينا ألا نقبل البحث فى العدل أو الظلم، والرحمة أو القسوة، وما هو خليق بالثناء أو الازدراء، بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها، وننحى كل ما عدا هذا جانباً، ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هى إلا قانون للسلوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعى، والوحدة، والقوة، وأن حكومة تلك الدولة لتعجز عن أداء واجبها إذا كانت وهى

تدافع عن الدولة تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقى الذى يجب عليها أن تغرسه فى نفوس شعبها. . ومن ثم فإن الدبلوماسى غير مقيد بالقانون الأخلاقى الذى يتقيد به شعبه، فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجة هذا العمل ذنبه- **ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة** . . وما من رجل صالح يلوم رجلاً غيره يحاول أن يدافع عن بلاده، أياً كانت السبل التى يسلكها لهذا الدفاع - فضروب الغش، والقسوة، والجرائم التى يرتكبها الرجل فى سبيل الاحتفاظ بدولته كلها غش شريف، وجرائم مجيدة ، ومن ثم فإن رميولوس كان على حق حين قتل أخاه، لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة،·وإلا مزقت إرباً، وليس ثمة قانون طبيعى أو حق متفق عليه من الناس جميعاً، والسياسة إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاماً».

سرد ميكافيللى فى كتابه الأمير كثيراً من النصائح لأميره لتعينه على الحكم: «واجب الأمير أن يفرق فى قوة وحزم بين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكم، أى بين ضميره الخاص والصالح العام، وأن يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض - ويجب عليه أن يزدرى أساليب التردد والضعف التى لا تبلغ الإنسان الغرض كاملاً، والأعداء الذين لا يستطيع كسب صداقتهم يجب القضاء عليهم، ومن واجب الأمير أن يقتل من ينازعونه عرشه. . ولابد له أن ينشىء جيشاً قوياً لأن الحاكم لا يستطيع أن يتحدث بصوت أعلى من صوت مدافعه، ومن واجبه أن يحافظ دائماً على صحة جنوده وحسن نظامهم، وعدتهم، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه فى كثير من الأحيان للمخاطر، وعليه فى الوقت نفسه أن يدرس فنون الدبلوماسية، لأنه يستطيع أن يصل بالمكر والخداع فى بعض الأحيان بأكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة، ويجب عليه ألا يتمسك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة، والسيد العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان فى وسع أعدائه أن يتخذوا محافظته هذه سلاحاً لإيذائه. ولاغنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب، ولكن إذا كان لابد للحاكم أن يختار بين أن يخافه شعبه دون أن يحبه، وبين أن يحبه دون أن يخافه

وجب عليه أن يضحى بالحب.. لكن حكم الجماهير بالرأفة والرحمة أسهل من حكمها بالغطرسة والقسوة.. ويجب ألا يهب الناس الحرية، ولكن من واجبه أن يمتعهم قدر المستطاع بمظاهر الحرية، وعلى الحاكم أن ينشر الدين وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أياً كانت عقائده الخاصة، والحق أن تظاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد من أن يكون فاضلاً بحق.. إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له وإن لم يكن من الضرورى أن يتصف بها، فعليه أن يتظاهر بأنه رحيم، وفى، شفيق، متدين، مخلص، ومما يفيده أيضاً أن يتصف بهذه الصفات، على أن يكون ذا عقل مرن يمكنه إذا دعته الحاجة من أن يتصف بعكسها، وعلى الإنسان أن يلون سلوكه، وأن يكون مرائياً لأن الناس سذج منهمكون فى حياتهم الحاضرة إلى حد يسهل معه خداعهم، وفى مقدور كل إنسان أن يرى مظهرك، ولكن قليل من الناس من يعرف حقيقة مخبرك، وأولئك النفر القلائل لا يجرؤن على مخالفة رأى الكثرة فيك».

لم يكن ميكافيللى هو أول من وضع أسس الفلسفة النفعية الوصولية، فالسيد العبد الذى ينتهج هذه الفلسفة تواجد، منذ قديم الزمن، وهذه الشخصية متواجدة فى جميع العصور، وفى النقاط التالية بعض مبادئ الفلسفة النفعية والوصولية، التى يعتنقها هذا الإنسان المتأرجح بين السيد والعبد:

– إن معظم الناس لا يتسمون بالطيبة وبناء عليه يجب أن نتعلم كيف لا نكون طيبون، ان الواقع العملى الفعلى للحياة يستلزم ألا يتمسك الإنسان ببعض الفضائل التى قد تدمره إن عاش بها، فكما يوجد الإنسان الطيب يوجد أيضاً الإنسان القاسى، الجشع، المستبد، الحقود، الفاسق، المتغطرس، فعلى الإنسان ألا يكون طيباً مع هذه الصفات السيئة، وكما ينصح ميكافيللى من أن اقتراف بعض الرذائل قد يؤدى إلى الأمن والاستقرار والنجاة من المهالك ففى قول اناتول فرانس «إن الأخلاق هى مجموعة أهواء المجتمع» أيضاً ذريعة لفلسفة الأخلاق كما نهوى وكما نحب أن تكون.

- يجب ألا يتعلم الإنسان أن يكون كريم سخى فالإسراف يؤدى إلى الإفلاس ومسك اليد بعد العطاء يؤدى إلى تمرد من تعود الأخذ كما أنه سيعانى من اتهام الناس له بالبخل والتقتير إذا قصر فى العطاء، يجب أن يتعلم الإنسان كيف ومتى ولمن يعطى وكيف ومتى ولمن يمسك، يجب أن يحسب المقابل للعطاء، أو كما ورد فى العلوم الاقتصادية الحديثة (حساب: الفائدة/ التكلفة).

- قد يؤدى الانفاق بغير حساب إلى السرقة أو الاختلاس للإنفاق على من تعود على كرمنا وإلا انفضوا من حولنا، المال قوة يجب الحفاظ عليها فمن الحكمة أن نعيش بصفة التقتير التى تسبب فخر وزهو أقل ولكن بدون عداء، على أن نعيش بصفة الكرم الزائد لإرضاء الناس والذى قد يؤدى إلى الفقر ومد اليد إلى الغير.

- يجب على الإنسان إلا يسىء استخدام الرحمة فقد تكون القسوة لازمة للإدارة وللتحكم فى البشر، وقد تؤدى الرحمة إلى الفوضى والعصيان. . يجب أن نعيش فى يقظة مستمرة ومن منطلق الاعتدال، لا رحمة دائمة ولا قسوة طوال الوقت، لا تعمينا الثقة بالنفس عن الحذر كما لا يعمينا الارتياب الزائد عن التسامح فى الحدود المقبولة . . يجب أن نعلم الآخرين أن يرهبونا ويحبونا فى نفس الوقت.

- للبشر طباع سيئة فطالما حققت لهم النفع فهم موالون لك وهم على استعداد أن يقدموا لك أموالهم وممتلكاتهم وحتى دمائهم وأولادهم يقدمونها إذا كانت لهم حاجة ماسة، ولكن أحذر فعندما تنقطع الحاجة إليك ينقلبون عليك. . يجب أن يشعر الآخرين بفضلك الدائم عليهم وأنك تستطيع أن تمنح كما تستطيع أن تمنع. . يجب ألا نطمئن إلى معسول الكلام من الآخرين فطبيعة الإنسان النفاق، والإنسان المنافق هو إنسان ضعيف يقتلك بغدر ويغدر بك فى مقتل.

- يجب أن نتعلم فن المناورة ومهارة التلاعب بالآخرين والتلاعب بالألفاظ وكيف نلقى الخطب الجياشة التى تؤثر فى بسطاء الناس، ولتكن نصيحة فورتين دى فيليس أمام أعيننا :« نادراً ما ينصح بأن تواجه التحامل أو الثورة بالمثل، ولكن من

الأفضل أن تبدو وكأنك متفق تماماً معهم حتى تكسب الوقت لتحاربهم، على الإنسان أن يعرف كيف يبحر عكس الريح ويناور حتى تصبح الريح مواتية».

- نحن نصارع ونناور - نداهن ونجامل من أجل هدف المنفعة . . إن لكل شيء ثمن والإنسان أيضاً له ثمن، المهم أن نعرف كيف نساوم لتخفيض الثمن الذى ندفعه إلى أقل قدر ممكن وتصعيد الثمن الذى نقبله إلى أكبر قدر ممكن. . الحياة منفعة والذكى من يحصل على أكبر قدر من صافى المنفعة.

- يجب أن نتصرف تصرف الوحوش. . فى أن تكون كالأسد وكالثعلب فى آن واحد، الأسد فى قوته والثعلب فى دهائه. . فالثعلب يستطيع أن يحمى نفسه من الكمائن ولكن لا يستطيع أن يحمى نفسه من وحش كاسر يواجهه وجها لوجه، أما الأسد فيستطيع أن يصارع ويتغلب ولكنه لا يستطيع أن يتجنب الوقوع فى فخ الماكرين. .

- الإنسان فى أوقات ضعفه يصبح سهل المنال يمكن شراؤه بأبخس الأثمان. . يكون الإنسان ضعيفاً عندما تقرب مخزون طاقته النفسية والعصبية على الانتهاء ويحدث هذا النضوب بعد الدخول فى صراع داخلى أو خارجى. . عندما تتصارع المرأة أو الفتاة مع زوجها أو أهلها أو مع من تحبه، تستهلك معظم طاقاتها النفسية فى الصراع وحينئذ تصبح سهلة المنال بقليل من العاطفة والكلام المعسول، والرجل أيضاً تستطيع صيده فى لحظات ضعفه ونضوب طاقة بطاريته الانفعالية بقليل من المغريات. . تحين فرصة الضعف لتشترى الغالى بقليل من الثمن.

- الإنسان الذكى لا ينبغى له أن يحفل كثيراً بالوفاء عندما يكون الوفاء ضد مصالحه. . ليس كل الناس أوفياء، فلماذا نكون نحن الأوفياء، ولكن يجب أن نبرز التبريرات القوية ونقدم الذرائع المقبولة لنقض العهد حتى نظل أوفياء أمام الناس ويظهر الطرف الآخر بأنه السبب فى اضطرارنا إلى نقض ما تعهدنا به. . من السهل خداع الناس بالتظاهر والورع والتقوى وما أسهل رسم مسحة الإيمان على جباهنا والتقوى على وجوهنا. . ما أسهل التظاهر بالرحمة والإنسانية والإخلاص

والوفاء. . والله وحده يعمل ما فى سرائرنا. إن بعض الفلسفات الحديثة لم تعد تسمى الشر شراً ولكن تسميه عدم الخير وأصبح مسمى القسوة حزماً. . إنها كلمات نستطيع تلوينها حسب من نريد وحسب من نريد أن نقدمها له فالغاية تبرر الوسيلة.

- لكل شيء فى الوجود مقابل وكل شيء له ثمن مادى أو معنوى . . فالزوج يحب زوجته لإشباع رغبات وغرائز جنسية، والوالدان يحبان أولادهم لإشباع غرائز الأمومة/ الأبوة، والأولاد تنتظر الدعم المادى والمعنوى من الوالدين، الإيمان مقابل جنة الخلد، العلاقة بين الأصدقاء هى علاقة منفعة متبادلة وكذلك العلاقة بين الشعوب. . وياحبذا لو كان الميزان التجارى فى صالحنا فستكون المنفعة فى هذه الحالة لنا، من منا يرضى بالتعادل والتساوى، نحن بطبعنا شرهين، طماعين، نحب الانتصار، ونحب أن نحصل دائماً على الجزء الأكبر من الكعكة وليكن الفتات للآخرين.

التفاوض والتوافق :

يقضى الإنسان منذ طفولته فى حياة تلازمها التعاملات، بدءاً مع الوالدين والأخوة فى المنزل، ومروراً بالحياة الدراسية والعملية، فى الشارع وفى العمل، فى النادى الاجتماعى والثقافى والرياضى، فى الحزب السياسى ، فى الحرب وفى السلام، مساومات على عمليات بيع أو شراء، ومفاوضات من أجل تسوية خلاف. حياة مليئة بالشد والجذب، بالأخذ والعطاء، نظام أزلى منذ بدء الخليقة عندما ارتضى الإنسان الأول أن يعيش فى مجتمع مكون من ذاته وآخرين، ما دام يوجد آخر وجد الاختلاف ووجد أيضاً الصراع والتفاوض.

إذا كان الصراع ينبع من الاختلاف والتضاد فإن التفاوض هو عملية تقدم فيها الاقتراحات للوصول إلى اتفاق يحقق فيه المصلحة المشتركة فى الأمر الذى يتصارع عليه الأطراف. . إن التفاوض كحل لإنهاء الصراع يطبق فى الصراع البشرى بين الإنسان وذاته، أو الإنسان وإنسان آخر، أو بين الدول المختلفة، وفى جميع الأحوال من المفروض أن يتم من خلال عملية المفاوضات الوصول إلى اتفاق يرضى بدرجة ما

الطرفين أو الأطراف المعنية لإنهاء الصراع بصورة جذرية أو تنظيم بعض جوانب السلوك فى المستقبل أو تجميد الصراع لفترة محددة (هدنة).

يتجه المتصارع إلى التفاوض عندما يجد أنه يخسر فى عملية الصراع أو حتى إذا انتهى الصراع بفوزه فقد يتجاوز ما سيخسره الفائدة العائدة من الفوز والوصول إلى الهدف الذى يسعى إليه. . فالتفاوض هو فى الأساس عملية حساب أرباح وخسائر، إن تقدير أو تقييم الأرباح والخسائر هى عملية نسبية ، فبعض الناس تعطى وزن وقيمة كبيرة للأرباح أو الخسائر المادية والبعض الآخر يضع الكرامة والشرف فوق كل اعتبار وقد يكون لذة الفوز لمجرد الفوز هو هدف فى حد ذاته، المهم أن نعرف كيف نقيم وبأى ميزان نزن.

يعتبر التفاوض نوع آخر من أنواع الصراع، صراع للوصول إلى حل لمشكلة الاختلاف مع تحقيق أكبر مكسب ممكن أو أقل خسارة ممكنة، وبصفة عامة يمكن تجميع العوامل التى تؤثر فى عملية التفاوض فى ثلاثة محاور رئيسية:

١ - القوى المتاحة لدى المفاوضين :

تختلف طبيعة القوى من قوى عسكرية أو قوى اقتصادية أو قوى ضغط من أطراف أخرى خارجية. . المفاوض الذى يملك القوى يستطيع أن يفرض شروطه على المفاوض الأقل قوة. . ولكن القوة أيضاً نسبية، فمن لا يملك القوة قد يكون أيضاً قوياً فهو يملك قوة اليأس المدمر. . إن القاتل الهارب المحكوم عليه بالإعدام قد يمتلك قوة تدميرية نتيجة يأسه، والإرهاب أيضاً قد يكون نابع من عقيدة حق من وجهة نظر الإرهابى وخطأ من وجهة نظر المجتمع، أو نابع من يأس من يعلم أنه لن يخسر شيئاً إذا سجن أو قتل. . إن ممارسة القوة يعتبر جزءاً هاماً من مفاوضات البحث عن حلول مقبولة لدى الطرفين، ولكن مفهوم القوة فى المفاوضات يختلف عنها فى الصراع، فالمقصود هنا بالقوة قدرة إقناع الطرف الآخر بالحلول المطروحة والتى تعود علينا بالفائدة المرجوة من السير فى عملية المفاوضات، فيجب علينا أن نقنع الطرف الآخر بأن فى المفاوضات انتصاراً له، وبالفشل فى إتمامها سوف يخسر الكثير.

٢ - إتاحية المعلومات لدى المفاوضين :

تلعب المعلومات دوراً مؤثراً على مائدة المفاوضات، فحصول مصر على خرائط وصور قديمة لمنطقة طابا كان له الأثر فى سير المفاوضات، قد يكون للمفاوض الحق فيما يفاوض فيه ولكنه لا يملك الدليل فيضيع حقه، فلإثبات الحق وضع الإنسان القوانين التى تتطلب إثباتات مادية ومعلومات موثقة وصور مرئية أو مسموعة أو مقرونة بالادعاء.. تعتبر أيضاً إتاحية المعلومات عن المفاوضين أنفسهم من الأهمية إما للإقناع أو للابتزاز.

٣ - مهارة المفاوض :

لقد خسرنا نحن العرب كثيراً، نحن نملك القوة الاقتصادية فى البترول والمال ونملك المعلومات فى الوثائق ولكن لا نملك مهارة المفاوض الجيد.. لقد أصبح علم التفاوض علم أساسى فى إدارة الأعمال والعلاقات الدولية والسياسية، علم يتطلب دراسة كثير من العلوم الاجتماعية والنفسية وبحوث العمليات ونظم المعلومات، ليس المهم أن تكون القوى التى يملكها المفاوض حقيقة أو خادعة ولكن المهم هو كيف يساوم المفاوض بهذه القوى للوصول إلى مايريد.. فإذا كانت المهارة الفردية عامل مهم لفوز الفريق الرياضى فإن الخطط التى يضعها المدرب ومدير الفريق وكذلك دراسة احتمال تغيير الخطة الموضوعة مسبقاً حسب سير المباراة وتوقع الخطة التى يلعب بها الفريق المنافس لها الدور الأكبر فى الفوز.. يجب أن يتعلم المفاوض ثقافة الأطراف الأخرى من المفاوضين حتى يستطيع فهم ما يقولون فوسيلة الاتصال واجبة لإتمام عملية التفاوض.. ليس المفروض على المفاوض فقط أن يسمع أو يقرأ أو يرى ولكن يجب عليه أن يفهم ويعى ويحلل ما يسمعه وما يقرؤه وما يراه.. فقد تعنى كلمة فى ثقافة ما معنى مختلف عن المعنى المفهوم فى ثقافة أخرى.

- تعتبر المفاوضات عملية اتصال وإقناع وإدراك لعناصر المسائل المعلقة محل التفاوض، ولما كان الإدراك نسبى يختلف باختلاف الثقافات المختلفة المتكونة عبر آلاف السنين من معتقدات وأديان وأساطير وطبيعة إنسانية وطبيعة مكان وزمان فقد

يختلف الإدراك لدى المتفاوضين على نفس العناصر، فإذا تعلمنا ثقافة المفاوض الخصم (أو بتعبير آخر أكثر تحضراً: المفاوض المقابل بدلاً من المفاوض الخصم) نستطيع أن نقنعه بوجهة نظرنا من خلال المنظور الخاص به.

- أصبح فن التفاوض علم يدرس، له مذاهب ومدارس، له أصول واستراتيجيات. فى النقاط التالية يمكن تلخيص القواعد العامة لعملية التفاوض والاستراتيجيات التى يمكن اتباعها للوصول إلى أقصى فائدة للأطراف المتفاوضة فكلما كانت الفائدة عامة على الجميع كلما كانت النتيجة التفاوضية ثابتة وراسخة وطويلة المدى وسريع الوصول إليها.

- عدم الانفعال أثناء المفاوضات وخلق المناخ المناسب البعيد عن الغضب والخوف والعدوانية، قد يستلزم الأمر كسر استمرارية المفاوضات والذهاب إلى الشرفة - كما ينصح ويليام أورى خبير المفاوضات الأمريكى - من أجل راحة الأعصاب والسيطرة على الانفعال واستنشاق مزيد من الأوكسچين وبالتأكيد حساب الأرباح والخسائر فى حالتى نجاح أو فشل المفاوضات.

- تحرى الموضوعية فى حل المشاكل وتجريد الصراع من الصبغة الشخصية.

- تنمية مهارة الاستماع للأطراف الأخرى لتفريغ ما بداخلهم مما يؤدى إلى الراحة النفسية لهم بالإضافة إلى الحصول على أقصى قدر من المعلومات.

- توظيف الوقت لصالحنا، فيجب أن نتعلم متى نسرع فى عملية التفاوض ومتى نسوف ونتظاهر بعدم الاهتمام.

- تحديد نقاط القوة ونقاط الضعف لأنفسنا وللأطراف الأخرى على قدر إتاحية المعلومات الخاصة بهم.

- محاولة حفظ ماء الوجه للطرف الآخر وتقديم اقتراحاتنا كأنها نابعة منه ومتماشية مع قيمه ومفاهيمه.

- توسيع قاعدة الاختيارات وإتاحة أكثر من حل للمشكلة.

- إمكانية تغيير اتجاه المفاوضات لإحداث عنصر المفاجأة أو لإرباك المفاوض المقابل.

- التمويه عن التحركات وتسريب بعض الحقائق أو الإشاعات بطرق غير مباشرة لمعرفة رد فعل الأطراف الأخرى قبل الدخول فى عملية المفاوضات.

- تنويع وفد المفاوضات ليشمل الطيب والشرس، لكل منهما دور سيلعبه فى ملعب المفاوضات.

- تطبيق استراتچية الخطوة بخطوة إذا كانت الأطراف المتفاوضة لا تعرف بعضها البعض أو استراتيچية الضربة القاضية المفاجأة فى حالة تهاون وعدم تركيز الطرف المقابل.

- إمكانية إشراك طرف آخر محايد إذا وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود أو إذا حدث شد وجذب بين الأطراف المختلفة.

يختلف اتجاه المفاوض باختلاف شخصيته وثقافته وإيدلوچيته فيوجد المفاوض الإيجابى المتعاون، والمفاوض ذو الاتجاه التنافسى الذى تحركه دوافع الشهرة والأنانية، والمفاوض المخادع ، والمفاوض العدوانى، وأخيراً المفاوض المخاطر. . ولكن توجد شروط عامة يجب أن تتوافر فى المفاوض الماهر وهى:

- ذكاء عملى وقدرة على التفكير بوضوح تحت ضغوط المفاوضات أو الضغوط الشخصية الأخرى.

- قدرة على التعبير الشفوى.

- تكامل شخصى وصفاء ذهنى.

- قدرة على التعامل مع الاستفادة من المعلومات.

- القدرة على إدراك واستغلال القوة.

- التحلى بالصبر والثقة بالنفس.

- القدرة على الاحتمال الجسدى والعقلى لعملية المفاوضات.

يثار سؤال مهم أثناء المفاوضات وهى أى درجة من المخاطرة نتقبلها؟ بصورة عامة تختلف درجة تحمل المخاطرة تبعاً لشخصية المفاوض، ولكن قبول المخاطرة المحسوبة طبقاً لنظرية الاحتمالات يمكن أن تخفف القلق المصاحب لاتخاذ القرار المشمول بدرجة من المخاطرة، كما يمكن القول بصفة عامة أيضا أن السلوك التعاونى فى عملية المفاوضات يقل عند المفاوض الذى يتقبل درجة المخاطرة المرتفعة.

سرد ويليام أورى خبير التفاوض الأمريكى فى كتابه "فن المفاوضات"، العوائق التى تقف عادة فى طريق الوصول إلى حل للمشكلة، فالمفاوض قد يلجأ إلى الأسلوب التقليدى للتفاوض وهو إما التمسك المتشدد بالرأى أو سهولة الاستسلام والسماح للطرف الآخر باستغلاله، ومن وجهة نظر خبير التفاوض أورى أنه يوجد خمسة عوائق شائعة تحول دول إنهاء التفاوض إيجابياً وهى:

١ - رد الفعل : فالإنسان كآله لرد الفعل، إذا تعرض لهجوم أو ضغوط فإنه من الطبيعى أن يقوم بهجوم مضاد، وذلك يساعد على تصاعد عمليات الفعل ورد الفعل التى تؤدى إلى خسارة لكل من الطرفين.

٢ - مشاعر الآخرين : تساعد المشاعر السلبية للمتفاوضين على خلق المناخ العدوانى والمواقف المتشددة، فبعض الناس يتعاملون مع الآخرين من مبدأ «إن لم أكن غالباً فأنا مغلوب» أو بمعنى آخر، «إن لم أكن سيداً فأنا عبد».

٣ - موقف الآخرين : إن تشبث أحد الطرفين برأيه فمحاولة الضغط على الطرف الآخر يخلق نوعاً من التحدى لدى الطرف الآخر، فتسير المفاوضات فى طريق مسدود.

٤ - عدم رضا الآخرين : قد يكون الحل الأمثل للمفاوضات لا يرضى مصالح أحد الطرفين، ويخشى أن يفقد ماء وجهه إن قبل هذا الحل، فيمضى فى طريق الرفض.

٥ - قوة الآخرين : إذا أظهر أحد الطرفين قوته فسوف يتولد شعور عدم جدوى المفاوضات من الطرف الآخر ، لذا يجب أن يشعر كل من الطرفين بمبدأ المساواة فى القوة.

نصح وليام أورى بأن على الأطراف المتفاوضة أن تتخطى الرفض، وتتعاون معاً لاختراق العوائق الخمسة السابق ذكرها، من الممكن أيضاً تغير السلوك العدوانى المتحجر، أو أسلوب الحيلة والخداع، إذا استطعنا أن نحلل شخصية الطرف المقابل وندرس دوافعه المستترة التى تقف وراء هجومه العدوانى، فعملية التفاوض يجب أن تثمر الفائدة والمكسب لجميع الأطراف، وليس لطرف واحد على حساب الأطراف الأخرى.

يستخدم علماء الاجتماع تعبير التوافق (Accommodation) للتعبير عن عملية التراضى أو الصلح بين الأطراف المتنافسة أو المتصارعة سواء كانوا أفراداً أو جماعات، يأخذ التوافق أشكال متعددة تتفق مع نوع العلاقة بين الأطراف المتنازعة من حيث تفوق إحداهما قوة أو نفوذاً، كما تتفق مع نوع الحضارة والثقافة الخاصة بأطراف النزاع، ويمكن حصر أشكال عملية التوافق فى النقاط الست التالية:

١ - الاستسلام (Yielding) :

ينتهى الصراع بالاستسلام إذا انتصر أحد الطرفين المتنازعين، فيخضع الطرف المهزوم لجميع شروط المنتصر، لتيقن المهزوم بأن الاستمرار فى الصراع سيؤدى حتماً إلى القضاء عليه، ويظهر الاستسلام فى العادة فى حالة الحروب المدمرة أو النزاع الدموى باستخدام الأسلحة المختلفة.

٢ - التقريب بين وجهات النظر (Compromise) :

عندما تتفاوت قوى النزاع تفاوتاً ملموساً، يكون من السهل أن ينتهى الصراع باستسلام الطرف الضعيف، أما إذا تقاربت القوى فمن الصعب أن ينتهى الصراع بسيادة أحد الأطراف على الآخر ، فيشعر الطرفين بعدم جدوى صراعه، وأن المصلحة المشتركة هى وقف الخسارة المستمرة والجهد الضائع فى الصراع مما يؤدى إلى

أن يتفق الطرفان، وفى هذه الحالة يلجأ طرفى النزاع إلى الصلح أو التوافق أو تقريب وجهات النظر عن طريق تنازل كل من الطرفين عن بعض أطماعه، أو طموحاتــه، أو ما يصبو إليه من الخوض فى النزاع، ويسود استخدام هذا الشكل من توافق فى المنازعات العمالية وفى المعاهدات الدولية وفى النزاع الأسرى.. وترتبط ممارسة عملية التقريب بين وجهات النظر على المساومة وذلك عن طريق محاولة كل من الطرفين أن تكون خسارته أقل من خسارة الطرف الأول.

٣ - الوساطة (Mediation) :

يوافق طرفى النزاع بقيام وسيط لوضع الحلول أو الاقتراحات لحل النزاع بطريقة سلمية، ويتجه الوسيط إلى استخدام مبدأ تقريب وجهات النظر، ولا تعتبر اقتراحات الوسيط ملزمة لطرفى النزاع.

٤ - التحكيم (Arbitration) :

فى هذا الشكل من العمليات التوفيقية يكون قرار التحكيم ملزم للأطراف المتنازعة ، ويتم اختيار هيئة التحكيم من أفراد غير متحيزين لأى من الطرفين، وتستخدم هذه الوسيلة فى المنازعات الدولية من خلال محكمة العدل الدولية فى لاهاى بهولندا، والتى أنشأتها عصبة الأمم عام ١٩٢٠ لحل الخلافات التى تقوم بين الدول.

٥ - التسامح (Toleration) :

بعد مرحلة طويلة ومريرة من الصراع دون أن يصل أى من طرفى النزاع إلى نتيجة حاسمة ، قد يتجه التفكير إلى الرغبة فى التوقف عن الصراع بالرغم من اقتناع كل طرف بأحقيته فيما يصارع فيه وأن الطرف الآخر ليس على صواب. هذا النوع من التوافق لا يتوافر فيه عادة حسن النية، ولكن يتم الصلح لوقف الخسارة المستمرة نتيجة للنزاع أو لتحقيق مصلحة مشتركة لا يتم الحصول عليها إلا عن طريق المصالحة وعودة السلام.

٦ – التبرير (Rationalization) :

يتم من خلال هذه الوسيلة إبراز معلومات جديدة عن موضوع الخلاف تعمل على إرضاء كل من طرفى النزاع، كتبرير لعملية التوافق، وأقرب مثال لهذا الشكل من التوافق هو ما يحاوله الموفقين بين الأديان السماوية بإبراز نقط التشابه بين العقائد المختلفة.

النظام العالمى الجديد :

بالرغم من تغلب الفكر الاقتصادى الحر بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وقيام الاتحاد الأوروبى، وقع كثير من دول العالم فى فخ العولمة التى تبنتها الحضارة الغربية وفرضتها بقوة الاقتصاد ورأس المال على دول فى دور التطور أو دون التطور، بدون حل لمشاكل الاستغناء على كثير من العمال بعد خصخصة الشركات الحكومية أو اندماج الشركات الخاصة. بالتأكيد الفكر العولمى والانفتاح الاقتصادى صحى ولكن لا توجد الضوابط الكافية أو مد يد العون إلى الدول المتخلفة حتى تنافس فى سوق يحكمه العمالقة فى مجالات سوق المال والتكنولجيا والصناعات المتقدمة.. قبل البدء فى تبنى العولمة كان من الحكمة أن تبدأ الحضارة الغربية المعتزة بريادتها فى تبنى الفكر الديمقراطى الليبرالى فى دول العالم التى يسودها الديكتاتورية والاستعباد، ثم تبدأ فى نشر الثقافة الغربية القائمة على الحرية والمساواة، وأخيراً تطرح فكر العولمة الاقتصادية والتجارية.

تختلف معايير التقييم عند الفرد كما تختلف عند الدول، قد تعرض قضيتين متماثلتين أمام قاضيين مختلفين فيحكم كل قاضى بحكم مختلف. وعوامل كثيرة تتدخل فى معايير التقييم، منها الثقافة (Culture) ، ومنها تراكم التجارب وكذلك الحالة النفسية التى يكون عليها الحكم أو المقيّم وقت التقييم أو وقت اتخاذ قرار الحكم.. عرف العالم الاجتماعى الأمريكى تايلور فى القرن التاسع عشر، المعنى العام لكلمة الثقافة ، بأنها ذلك المجموع المعقد والمتداخل والمكون من المعرفة، والعقيدة ، والفن، والأخلاقيات، والقانون، والعادات، وغيرها من القدرات

والتقاليد، كأسلوب العمل واللهو، وأدوات الإنتاج، وقواعد السلوك. . . إلخ، والتى يكتسبها الإنسان من خلال عضويته فى مجتمع معين.

فى العادة ينحاز الفرد لذاته فيضخم فى قدراته ومكانته، ثم ينحاز للأفراد الذين تجمعهم معه روابط مشتركة مثل القرابة أو الانتماء لاتجاه سياسى معين أو ثقافة معينة أو حتى نادى رياضى واحد. . كذلك الدول فهى تنحاز إلى مثيلاتها فى الأيدلوچية والثقافة والعقيدة، ومن هنا نشأت التكتلات والأحلاف مثل حلف الناتو، وجامعة الدول العربية، والمجموعة الأوروبية، ومجموعة أمريكا اللاتينية ومجموعة شرق آسيا، ويظهر داخل الدين الواحد نفس التكتلات فالأديان السماوية لها مذاهب وشيع والأديان الغير سماوية كثيرة لا تحصى.

تبدأ شرارة الصراع واندلاع الحرب من التباين فى التقييم عندما يرى كل من الطرفين أنهما على حق والآخر على باطل، إنه الأصح والآخر مخطأ، أفعاله هى الخير وأفعال الغير هى الشر، وينحاز كثير من المتفرجين إلى طرف من الأطراف ويغذى هذا الإنحياز شرارة الاندلاع، ويزداد البون ويتصاعد الحماس الذى يؤدى فى النهاية إما إلى الحرب أو إلى تحكيم قد يتنازل فيه كل طرف عن جزء من حقوقه.

فى الزمن الحالى وبعدما عانت دول كثيرة من جراء حروب ضروسة، قتل فيها الملايين من البشر وعانت شعوب من فاقة الحرمان والتشرد، اتجهت هذه الدول إلى تخفيف نعرة التعالى عند شعوبها، وأحسن مثال على ذلك هو تحول الشعب اليابانى المقاتل الذى كان يفخر بأجداده من المحاربين الساموراى إلى رجال أعمال، فتفوقت اليابان صناعياً واقتصادياً على دول أخرى انتصرت عليها فى الحرب العالمية الثانية، كذلك الدول الغربية فى أوروبا وشمال أمريكا، من انتصر ومن انهزم، نسيت أو تناست خصومتها السابقة وبدأت فى التعاون الاقتصادى فتفوقت وأخذت الريادة وغزت العالم كله اقتصادياً، وتحول الاستعمار الإمبريالى القديم من غزو الجيوش إلى غزو رأس المال، وبدلاً من أن ترسل الدول الاستعمارية السابقة أساطيل وجيوش لغزو دولة أخرى قد تقاوم وتكبد الغازى الكثير من الأرواح والعتاد والأموال، أصبح

الغزو من خلال جهاز آلى صغير هو الحاسب الآلى (الكمبيوتر) ، أرقام فى حسابات تجمع وتطرح ، ومعدلات صرف عملات ترتفع وتنخفض ، شراء وبيع أسهم وسندات فى البورصات، يغذون روح تضخيم الذات عند دول جنوب شرق آسيا ويطلقون عليهم أسماء النمور الآسيوية، ثم تنهار هذه النمور وتتحول إلى قطط أليفة تلعق ما تبقى من كبريائها وكرامتها. . وقع الكثيرون فى فخ العولمة بالرغم من محاسنها ، ظن العديد من الدول أن اللعبة فى مصلحة الطرفين، فاستدانت الدول المتخلفة أو فى دور التطور ناسية أن أصول اللعبة كما وضع لوائحها الغرب تسمح للمستثمر الأجنبى بسحب استثماراته وتحويل أمواله فى أى وقت حتى وإن أدى هذا إلى انهيار الدولة المضيفة التى استقبلت رؤوس الأموال الأجنبية بصدر رحب ولكن بغباء تطبيقى، صور انبهارية من حضارة الغرب انجذب العالم الثالث لها،نعم الديمقراطية مطلوبة والليبرالية أيضاً مستحبة ، ولكن من الخطورة إنشاء مبنى عالى الارتفاع من الاقتصاد الحر على أرض هشة وبدون أساس متين، سينهار المبنى إن لم تقم بدراسة التربة التى سيقام عليها المبنى قبل الإنشاء وسيقع البناء إن لم تكن الأساسات بالقوة بحيث تتحمل أحمال المبنى.

كانت قوانين منع الاحتكار فى الماضى السبب فى تفتيت شركة كبرى لتصنيع أجهزة الكمبيوتر فى الولايات المتحدة الأمريكية، أما الآن فقد اندمجت شركات كبرى فى مجال الطيران والقوى الكهربية والبترول والسيارات والاتصالات وخلافه لتقوى سياسة الاحتكار.

كتب ألمانيان يعملان فى مجال الصحافة كتاب باسم "فخ العولمة - الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية" حذر فيه المؤلفان من مغبة السوق العالمية الحرة واندماج الشركات العملاقة: « فى عام ١٩٩٦ ، زاد عدد الذين يبحثون عن فرصة عمل من غير جدوى فى بلدان منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى - OECD - على ٤٠ مليون مواطن، تقليص فرص العمل لم يعد يهدد العاملين فى المصارف وشركات التأمين فقط، بل أخذ يعم أيضاً العاملين فى شركات الاتصالات الهاتفية» . . أشار الكاتبين إلى ديكتاتورية رأس المال، فأصحاب رؤوس الأموال يضغطون على

الحكومات لتقديم تنازلات كثيرة فى الضرائب وقوانين العمل ملوحين بهروب رؤوس الأموال ، ومهددين بإمكانية حدوث انهيار اقتصادى فى الدول المضيفة . . إنها مصالح شركات دولية عملاقة تسيطر على معظم اقتصاد العالم فى زمان اتحدت مصالح العمالقة الأسياد ضد الطبقة الوسطى من فنيين وموظفين وعمال، والسؤال الآن هو هل ستتحول هذه الطبقة أو حتى الدول النامية إلى عبيد بفضل السيد الاقتصادى الجديد؟!

تضخمت أنظمة الدولة الحديثة وأصبح الفرد جزءاً تافهاً من أنظمة وأنشطة متشابكة ومتفرعة داخل الدولة أو ممتدة خارج الدولة من خلال شركات متعددة الجنسيات ، وسفارات وقنصليات ومكاتب تمثيل، وتحول الإنسان الحديث فى الدول الديمقراطية إلى عبد للأغلبية، أما إذا كانت الدولة ديكتاتورية فإن الفرد يتحول إلى عبد للحاكم ومعاونيه وأجهزته الرقابية المتعددة.

لكى نكون منصفين يجب التسليم بأن اقتصاديات السوق والانفتاح الاقتصادى ورفع الحواجز والتشويه المصطنع (Economy Distortion) لآليات السوق له فوائد عظيمة إذا وضعت قواعد اللعبة بما فيها من مصلحة الشعوب المتخلفة، والدول النامية، كما تعود بالفائدة على الشعوب المتقدمة تكنولوچيا ، والدول ذات الناتج القومى المرتفع للفرد.

فالاقتصاد الحر يدفع المنتج إلى مراعاة الكيف بدلاً من الكم عن طريق التقنيات الحديثة ومراقبة الجودة (Quality Control) ، لقد عانى المستهلك فى البلاد الشيوعية والبلاد المتخلفة من سلع رديئة . . كانت سياسة هذه الدول إنتاج أكبر كم دون جودة وشكل يجذب المستهلك. بالرغم من انخفاض مستوى الأجور فإن تكلفة المنتج كانت مرتفعة فى البلاد المتخلفة أو النامية اقتصادياً كما يسميها البعض، ففاقد الإنتاج كثير، والعمولات والسرقة تلتهم جزء كبير من ميزانية الشركة، والسلع الراكدة تملىء المخازن ، كل هذه الأسباب كانت تؤدى بالتأكيد إلى ارتفاع تكلفة المنتج ما يصعب الدخول فى منافسة مع منتج جيد ذى تكلفة مقبولة تنتجه إحدى الشركات ذات الاسم المشهور والسمعة الطيبة.

من وجهة نظر أخرى فإن السوق الحر أو العولمة لها آثار سلبية على بعض النواحى الاجتماعية مثل زيادة البطالة التى تساعد على زيادة الانحراف بين طبقة العاطلين التى تجد نفسها فى فراغ وديون.

إن السلع الكثيرة المتنوعة، الرخيصة الثمن ، تبهر المستهلك وتغريه بالشراء ، كما أن سياسة الإغراق تمارسها دولاً كثيرة، والنتيجة بالطبع ليست فى صالح الدول النامية التى سيرتفع لديها حجم الاستهلاك والاستيراد ، مما سيؤدى إلى ميل ميزان مدفوعاتها إلى السالب. بالإضافة إلى ذلك فإن حتى فترة السماح المسموح بها للدول النامية لتوفيق أوضاعها وتغير لوائحها وقوانينها التجارية والمالية لن تكون كافية للتغيير التكنولوچى المطلوب فى مصانع قديمة ذات تكنولوچيات عتيقة، كما أن رأس المال المطلوب لتغيير الآلات وتحسين الهياكل المالية غير متاح للدول النامية، فيجئ دور المؤسسات والشركات المالية العملاقة كمنقذ ولكن بشروط لا تستطيع الدول المقترضة أن ترفضها، وحتى إن ساومت فإن الشروط لن تتحسن كثيراً.

يتنبأ بعض المتشائمين أو المتفائلين كلا حسب أيدلوچيته الرأسمالية أو الاشتراكية، أنه كنتيجة لتكتلات الشركات العملاقة متعددة الجنسيات والتى تستغنى على عدد كبير من العاملين بها، فإن النظام السياسى للدول سيواجه ضغط من القوى العاملة ومن العاطلين مما يؤدى إلى تدخل الدولة لمصلحة الطبقة الرأسمالية لقمع أى إضراب أو تذمر أو تمرد تقوم به النقابات العمالية أو من جهة أخرى أى تكتلات مهنية أو أفراد . . ومن المحتمل أن يتصاعد الموقف بقيام انتفاضات أو ثورات، ويتحول النظام الديمقراطى الحر إلى نظام شبه استبدادى، لتبدأ دورة أخرى لسيطرة طبقة مميزة على طبقة معدمة، مما يمهد إلى عودة نظام السيد والعبد مرة ثانية. . إذا كان تصور برجنيسيكى المستشار السابق للأمن القومى الأمريكى أنه بخليط من التسلية المخدرة والتغذية الكافية يمكن تهدئة خواطر سكان كوكب الأرض، فالسؤال المطروح: إلى متى سيظل تأثير المخدر الإعلامى الغربى؟ . . لقد سيطر الإعلام الغربى وخاصة الإعلام الأمريكى على عقلية الجيل الجديد بالأخص خارج حدود الحضارة الغربية بنفس مستوى السيطرة على الفرد الذى يعيش داخل هذه الحضارة. . فانتشرت أفلام

ومسلسلات الجنس والعنف ، مما سيؤثر على الثقافات الشرقية على المدى الطويل، بل من السهل ملاحظة هذا التغير فى الوقت الحاضر فى أسلوب الحياة اليومية من ملبس ومأكل، وزيادة الميول العدوانية لدى الشباب، وتدنى العلاقة بين الوالدين والأبناء.

إذا تمثلت العبودية القديمة فى التحكم الجسدى، فالتحكم العقلى نوع آخر من عبودية العصر الحديث. . إن تضليل العقل البشرى من خلال أجهزة إعلام متاحة عالمياً ومباحة قانونياً، ومقبولة جماهيرياً، ما هى إلا أداة للاستعباد العقلى/ العاطفى- من طبقة مستفيدة مادياً وسياسياً - على جموع الجماهير الشعبية، وتستخدم الأساطير الشيقة أحيانا لإخفاء الجانب الدينى أو العقائدى فى برامج تليفزيونية أو مواضيع صحفية، ولضمان جذب القاعدة الجماهيرية لتوجيه خاص لفائدة طبقة معينة. . كتب الأمريكى هربرت شيللر، أستاذ مادة وسائل الاتصال فى كتابه "المتلاعبون بالعقول" : « تستخدم الأساطير من أجل هدف محدد هو السيطرة على الشعب ، وعندما يتم إدخالهم على نحو غير محسوس فى الوعى الشعبى، وهو ما يحدث بالفعل من خلال أجهزة الثقافة والإعلام، فإن قوة تأثيرها تتضاعف من حيث أن الأفراد يظلون غير واعين بأنه قد تم تضليلهم، وفضلاً عن ذلك فإن عملية السيطرة تصبح أكثر فاعلية من خلال الشكل الخاص، الذى يجرى نقل الأسطورة من خلاله. . ذلك أن تقنية النقل يمكن أن تضيف بذاتها بعداً جديداً إلى العملية التضليلية».

من السهل على وسائل الإعلام المتعددة، الحديثة والمتقدمة تكنولوجياً، تصعيد التوتر الناتج من وقوع أزمة سياسية أو دبلوماسية أو اقتصادية بين بلدان أو جماعات مختلفة، فتكرار العرض الإعلامى المركز مع التناول الهستيرى لموضوع الأزمة قد يتسبب فى رد فعل عدوانى من أطراف النزاع. . وينبع التوجيه التصاعدى فى العادة من التخطيط المسبق للاستفادة من وقوع الأزمة وخلق صدام كان من الميسر احتوائه إذا تضافرت جهود ذوى النوايا الطيبة.

إذا كانت للعولمة مزايا كثيرة من نشر الثقافات المختلفة والمعرفة الحديثة، إلا أن عقل الإنسان الحديث أصبح عبداً لموجهى السياسات الإعلامية الذين قد يستخدمون العلماء المتخصصين فى علمى النفس والاجتماع لتوجيه أو تضليل العقل البشرى.

وفى نهاية الألفية الثانية، ومع سيطرة الحضارة الغربية، تحولت معظم دول العالم إلى مجتمعات استهلاكية، تسيطر فيه وسائل الإعلام على عقول الأفراد، تغريهم بألذ أنواع الطعام والشراب، وتجذبهم إلى مجمعات سكنية فيها كل وسائل الراحة والخصوصية ، وتفرض عليه أذواق وألوان من الملابس والمفروشات، يستطيع المشاهد أن يرى العالم كله من خلال جهاز صغير داخل منزله، يرى مختلف الأماكن التى قرأ عنها ويتطلع إلى الذهاب إليها، لقد تحول الجهاز الإعلامى إلى نظام إعلانى يسيطر على فكر الإنسان وذوقه واختياره، هذا النظام تحركه شركات عملاقة ويوجه مقتضيات السوق، فأصبح إنسان القرن الواحد والعشرون خاضع للسيد الإعلامى/ الإعلانى الجديد. . وصف هربرت شيللر النظام الجديد فى الكلمات التالية: « على رغم أننا نميل دائماً إلى الاعتقاد بأن - أحرار الرجال - وجدوا فى زمن ما أو فى مناخ ما، فإن إخضاع وقهر أغلبية البشر هى القاعدة على مر العصور. . ولقد تم ذلك الإخضاع أو القهر بوسائل مختلفة حسب طابع كل مجتمع وحاله، أو مستوى فنون القمع والموارد المتاحة لهؤلاء الذين يسيطرون على الحكم. وكان الهدف الرئيسى بوجه عام هو الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الناتج الاجتماعى للأقلية المتميزة، مع ترك ما يكفى لضمان استمرار قوة عمل الأغلبية الأقل حظا. . ولآلاف عديدة من السنين، ظلت الندرة، ومايصاحبها من إكراه بدنى، هو المنظم المعتمد فى الأغلب الأعم للسلوك الإنسانى. وفى القرون القليلة الماضية، وفى تزامن مع ظهور الصناعة الحديثة تطور نظام أكثر تعقيدا للسيطرة والإخضاع ، فلقد أتاح ظهور مجتمع السوق وضعاً اجتماعياً أكثر تحرراً ، إلا أن هذا الوضع أدى بالشعب العامل إلى أن يعتمد بصورة مطلقة على دخل هو عبارة عن أجر لعمل ليس الحصول عليه مكفولاً بصفة دائمة» .

إذا كانت العبودية هى البديل لفقد المهزوم حياته فى العصور القديمة والعصور الوسطى، فهل الحروب الحالية هى بديل للاستعباد الذى ألغى قانوناً وانتهى اجتماعياً، لقد أحصى صامويل هنتنجتون فى كتابه "صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمى"، عدد الصراعات الأثينية / السياسية فى عام ١٩٩٣/ ١٩٩٤ بخمسين، شاملاً صراع الحضارة الواحدة والصراع بين حضارتين، وبلغ عدد القتلى خلال السنوات الست الأولى من العقد الأخير للقرن العشرين حوالى اثنين ونصف مليون نسمة من دول مختلفة فى آسيا وأفريقيا ومنطقة البلقان، وقد نسب هنتنجتون هذه الحروب إلى الجذور التاريخية للخلافات بين الحضارات، والقوميات والأديان المختلفة، وأيضاً الصراع على الطاقة النفطية . مازالت تتواجد المخاوف والشعور بعدم الأمان بين أطراف النزاع، لقد عاشت الأطراف المتنازعة فى القرون الماضية فيما بين هدنة تفتقر للثقة، وعنف وحشى يصل لدرجة المجازر، فما غير الزمن ولا غيرت الحضارات من الضغائن الكامنة فى أعماق النفوس.

من المخطط حتى الآن أن يصبح العالم سوقاً واحدة، وستكون السلطة فى المستقبل فى أيدى مجموعة متحدة من رجال الأعمال، فمعظم دول العالم تهرول الآن نحو العولمة، وتتطلع الصين إلى جعل مدينة شنغهاى المركز الاقتصادى الأول فى قارة آسيا وأن تنافس بها نيويورك وفرانكفورت وطوكيو.. لقد أصبحت المعلومات متاحة لدى الجميع، فقد زاد عدد المشتركين فى شبكة الإنترنت العالمية عن مائة مليون.. لقد تحول العالم فعلاً إلى قرية صغيرة من خلال نظم اتصالات عالية التقنية ، ونظم معلومات حديثة ، وشبكات أقمار صناعية تغطى جميع بقاع كوكب الأرض.

فى نهاية العقد الأخير من الألفية الثانية انتهت الحرب الباردة والصراع الأيدلوجى بين الحضارة الغربية المكونة من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية والقائمة على النظام الديمقراطى الليبرالى الرأسمالى، والكتلة الشيوعية والتى كانت تحوى الاتحاد السوفيتى سابقاً وأوروبا الشرقية، وأصبحت الصراعات بين الجماعات الطائفية (حوالى ٢٣٣ مجموعة) والدول هى التحدى الذى يهدد الأمن المحلى

والدولى . . طبقاً للإحصائيات فإن حوالى بليون نسمة أى ما يقرب من سدس سكان العالم يتعرضون للضرر نتيجة للصراع الطائفى، لقد خرب الصراع دول البلقان أو ماكانت تسمى بيوغوسلافيا سابقاً، فقامت حروب مدمرة بين قوميات الصرب والكروات والبوسنة والهرسك، وكاد أن يمحى الصرب هوية شعب كوسافا إما عن طريق القتل أو الطرد . . ويحاول القوميون العرقيون (Ethnonationalists) فى كوبيك الفرنسية الانفصال عن كندا، وشمال إيطاليا يرغب فى الانفصال عن جنوبه، بعد أن تم انفصال أريتريا من أثيوبيا، بالرغم من أن اتفاقيات الحكم الذاتى قد ساعدت على إخماد ثورات الباسك والمورو والميسكيتو فى نيكاراجوا، وناجاوتريبورا فى الهند، وبعض الثورات الأخرى فى منطقة عفار بأثيوبيا وتلال شيبتا جونج فى بنجلاديش، إلا أن هذه الاتفاقيات قد فشلت فى إنهاء الصراع الداخلى فى السودان وسيريلانكا .

أما منطقة الشرق الأوسط فتتركز الصراعات الطائفية فى المشكلة الفلسطينية والأقليات الكردية الموزعة بين بعض دول المنطقة فى تركيا وسوريا والعراق وإيران، بعد إنهاك الحرب الطائفية الشعب اللبنانى وأثر الاتفاق والسلام، قامت الصراعات بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بين روسيا وبعض الجمهوريات المنفصلة . . لم تسلم أفريقيا أو دول جنوب شرق آسيا ودول أمريكا اللاتينية من ثورات الجماعات الطائفية، فخاضت هذه الجماعات صراعات دموية فى جنوب أفريقيا وزائير والفلبين وبورما وأندونيسيا واليمن والصومال وكوستاريكا وبنما والأكوادور . . قام البروفسير تيد روبرت جار بعمل دراسة شاملة عن صراع الأقليات فى كتابة "أقليات فى خطر ٢٣٠" شرح فيه نشأة الجماعات الطائفية: « وجدت الجماعات الطائفية تاريخياً قبل ظهور نظام الدول المعاصرة، وظلت فى معظم البلدان رغم سياسة الاستيعاب والإلحاق، تصر على البقاء وتعلو إلى الظهور حين يتم رسم الحدود الدولية، وتفتقد معظم الجماعات الطائفية لحالة التنظيم السياسى، مثل الصينيون فى ماليزيا وخليط العرب والكروات ومدن البوسنة المسلمة على أراضى الحدود الصربية الغربية . . فهم مشتتون ضمن شعوب أخرى، والجماعات الطائفية هى شعوب فى حالة تشوش

وضياع وإن كانت أكثر تماسكاً عن الجماعات المتجانسة ولكنها غير مترابطة سياسياً واجتماعياً. . والجماعات الطائفية من حيث الجوهر، هى تجمعات سيكولوچية ، حيث يتشارك أعضاء هذه الجماعات فى هوية متميزة وجماعية تقوم على سمات ثقافية ونمط حياة خاص بهم يميزهم عن الآخرين الذين يتفاعلون معهم، ويمتلك أى شعب أسساً ممكنة لهوية جماعية مشتركة مثل الخبرات التاريخية المشتركة، الأسطورة، المعتقدات الدينية، اللغة، الأصل العرقى، أقليم يقيمون فيه، وحرف تقليدية ونظم قبلية».

ماذا يحمل لنا القدر فى المستقبل، هل سيكون الصراع بسبب ندرة المياه العذبة، أم سيكون صراع حضارات كما نوه الكاتب الأمريكى صامويل هنتنجتون ، أم ستدور الرحى فى صراعات داخلية بين القوميات المتعددة أو الأديان المختلفة، من المؤكد أنه لن ينتهى الصراع إلا عن طريق التعديل الجينى، ومن المتوقع أن تكون جميع الأسباب السابق ذكرها أساساً للصراع، ومن المحتمل أن يعود السيد للتسيد ويخضع العبد للاستعباد، فالإنسان الحديث السيد العبد يحمل نطفتى السيادة والعبودية ومن الممكن أن تتكرر الدورة بشكلها القديم إذا انتهت الحضارات بصراعات فناء، ومن الممكن أيضاً أن يأخذ الاستعباد شكل آخر عن طريق الهندسة الوراثية.

نشطت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، نتيجة لتفاوت المستوى الاقتصادى بين الدول، دخول غير قانونى لأعداد كثيرة من العمالة إلى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا . . ساعد على انتشار هذا النشاط وجود عصابات منظمة تستولى على أموال هؤلاء العمال لمساعدتهم فى اجتياز حدود الدول المراد النزوح إليها، وفى كثير من الأحيان تترك هذه العصابات العمال فى سفن صغيرة فى عرض البحار والمحيطات أو فى صقيع شتاء قارص، عرضة للموت برداً أو غرقاً. . وقد تعرض لهذه المأساة الكاتبين الألمانيين هانس بيتر مارتين وهارالدشومان فى كتاب "فخ العولمة" :« فالمتاجرة بإدخال الراغبين فى النزوح على نحو غير شرعى، أصبحت تنافس اقتصاد السراديب المظلمة من حيث ما تدره من

عوائد.. فتهريب النازحين على نحو غير شرعى، وهو صيغة حديثة من صيغ المتاجرة بالرقيق، در بمفرده على بعض العصابات الصينية - Triaden - الناشطة فى الولايات المتحدة الأمريكية، أرباحاً تصل إلى ٥,٢ مليار دولار فى العام الواحد، بناء على تقدير إحدى الدوائر الحكومية الأمريكية».

انتهت الحرب الباردة التى عانى منها دول كثيرة كانت تسير فى ركاب الدولتين العظيمتين، وانتهى قبلها عهد الإمبراطوريات التى لا تغيب عنها الشمس، وتفاءل الجميع خيراً بمعيشة لا تحيط بها الحروب أو الأخطار، ومستقبل يسوده العدل، والمساواة، والحرية، واحترام الحياة، كما جاء فى نص تقرير لجنة "إدارة شئون المجتمع العالمى" عام ١٩٩٤: « نحن نؤمن بأن جميع البشر قد ولدوا متساوين فى حقهم فى الكرامة الإنسانية وأن من حقهم التمتع بحريات أساسية معينة : حرية تحديد هويتهم والتعبير عنها، واختيار شكل العبادة الخاصة بهم، والحصول على الرزق، والتحرر من الاضطهاد والقهر، وتلقى المعلومات. وتشمل الحريات الأساسية كذلك حرية الكلام، وحرية الصحافة وحق التصويت. ودون هذه الحريات، يصبح العالم ساحة للمعارك بين الأفراد والجماعات المتحاربة، يسعى فيها كل منهما لحماية مصالحه أو لفرض سلطته على الآخرين .. وتعتبر الحرية - بعد الحياة- أثمن ما يحرص الناس عليه ويقدرونه .. والحرية فى أكثر مفاهيمها ثراء، هى كل ما يمكن الناس من اختيار مسارات حياتهم، ولكى يصبحوا ما يستطيعون أن يكونوا عليه.. لكن حقوق الناس وأوجه استحقاقهم التى يتمتعون بها بالفعل عبر العالم تقصر بكثير عن تحقيق الحرية بهذا المعنى».. ومضى أكثر من خمس سنوات على تقرير لجنة إدارة شئون المجتمع العالمى، فلا سادت المثل التى طالب بها المفكرين والمصلحين، ولا توقف النزاع، فقدر الإنسان أن يعيش فى صراع دائم وتباين مستمر.

تغير التوازن بين الإنسان والطبيعة كنتيجة للتقدم العلمى والاقتصادى فى العصر الحديث، كما أدت الزيادة الهائلة فى سكان كوكب الأرض الذين بلغوا حوالى ستة بلايين نسمة، إلى الشراهة المزعجة لاستهلاك الموارد الطبيعية، وتدمير النباتات

والحيوانات والبيئة بصفة عامة، فتحولت الأراضى الزراعية والغابات إلى صحراء ومساكن، ومن المحتمل أن يتسبب ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض إلى إذابة الغطاء الجليدى عند القطبين الشمالى والجنوبى، مما يؤدى إلى كوارث طبيعية لارتفاع مستوى مياه البحار وحدوث فيضانات وغمر مناطق عمرانية بالمياه.

تغيرت العلاقة بين الإنسان والطبيعة، لقد كان على أسلافنا أن يتقوا شر نزوات الطبيعة وتمردها، فأصبحت الطبيعة تعانى من رفاهية واستبداد الإنسان عليها.. تخضع الدول المتقدمة اقتصادياً وتكنولوجياً إلى مجتمعات إستهلاكية ، تقوم استراتيچيتها على إيجاد حجم طلب كبير عن طريق الدعاية والتجديد، وفتح أسواق خارجية، وخفض العمر الافتراضى للسلعة أى مدة بقاء السلعة.. اعتمد اقتصاد هذه الدول على الإنتاج لمجابهة حجم الطلب المتزايد، وتراكم كم هائل من النفايات وعوادم الاحتراق الكربونى، فامتلأ الهواء بمركبات الكربون والنيتروچين والرصاص.. كما أدى النقص الغذائى إلى تخريب الطبيعة باقتلاع ملايين من الأشجار من الغابات الطبيعية..

إذا كان التلوث العفنى ، والتخمر، والتكاثر الميكروبى، وغيرها من الملوثات التى تحدثها الطبيعة يعالج نفسه بنفسه نظراً لأن التقنية الذاتية للمياه بفضل أشعة الشمس سرعان ماتضع حد لتكاثر الجراثيم المسببة للأمراض فإن التلوث الكيميائى الحادث من نواتج الاحتراق، والنفايات النووية، والمعادن الثقيلة، والمساعدات الكيميائية التى تستخدم فى الزراعة، ومنظمات غير قابلة للتحلل البيولوچى، كل هذه السموم تؤثر على الإنسان عن طريق طعامه وشرابه واستنشاقه للهواء الملوث وملامسته للمواد الضارة.

يظهر التلوث الاجتماعى من أخطاء التنظيم الحضارى بقيام التجمعات البشرية المفرطة الكثافة التى تعكس أثارها على أشكال السلوك الفردى والجماعى.. اقترن التطور الصناعى والاقتصادى الحديث بظاهرة الهجرة الوافدة أو الموسمية والتى أدت إلى زيادة كثافة السكان فى بعض المناطق من دول العالم، كما أدى ارتفاع مستوى الدخل فى بلاد كثيرة إلى زيادة حجم النقل البشرى للعمل أو السياحة وكذلك حجم التجارة المتبادلة بين البلاد المختلفة.. كتب فى هذا الخصوص د. جان بيلت

الفرنسى، أستاذ البيولوچيا النباتية فى كتابه الحائز على الجائزة الأوروبية "عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة" : « أسفرت هذه الظواهر المتزامنة للتجمع والاتصال عن سلسلتين من النتائج المتناقضة فى ظاهرها، والتى يلقى عليها الضوء تحليل يستند إلى البيولوچيا» . . كانت أول هذه النتائج التى وردت فى كتابه دكتور بليت هى التأقلم باكتساب المناعة، حيث يحدث اعتياد يؤدى إلى اكتشاف الغير وتقبله والاعتراف بالحق فى الاختلاف واحترام نمط حياة الآخرين، وتعلم الإنسان التعايش السلمى، وتقبل التهجين الثقافى من الفئات المهاجرة إلى مجتمعه. . أما النقيض الآخر فهو يتمثل فى نشوء حساسية اجتماعية مرضية نتيجة لتكوين رد فعل نفسى مضاد نحو الواردين الجدد. . وينشأ رد الفعل طبقاً لدراسات اجتماعية، عندما تزيد أعداد جماعة سكانية غريبة عن المجتمع الكائن بنسبة (١٠-١٥٪) وتظهر هذه الظاهرة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يقوم الصدام العنصرى نتيجة لمزج مجموعات متباينة الثقافة والمستوى الاقتصادى واللون والشكل، كما تظهر فى أوروبا كنتيجة لاستيراد أعداد كبيرة من الأيدى العاملة الرخصية من بلاد أخرى مختلفة الثقافة والعقيدة.

تنشأ ظواهر أخرى مماثلة كنتيجة للتركيز المفرط لجماعات سكانية متجانسة مما يؤدى إلى خفض المساحة التى يمكن أن تخصص لكل فرد. . كل هذه الظواهر السابق سردها والتى تظهر بالأخص فى المجتمعات المتقدمة صناعياً واقتصادياً تؤدى إلى زيادة السلوك العدوانى كما تؤدى إلى زيادة التلوث البيئى الذى يزيد بدوره من الميول العدوانية، واحتمال الصدام المستقبلى، والذى قد يؤدى إلى نشوب انتفاضات أو حروب إذا تدخلت أطراف أخرى لمناصرة أطراف النزاع.

أصبحت البشرية مهددة بالفناء الذاتى نتيجة للتلوث البيئى ، والانفجار السكانى الذى سيؤدى إلى زيادة الاحتباس الحرارى، وخفض حجم الموارد الطبيعية من نباتات وحيوانات ومياه عذبة، وهواء نقى، أى خفض الموارد اللازمة لمعيشة الإنسان. . كما سيؤدى زيادة السكان إلى حصر الفرد فى مساحة محدودة مما يزيد من السلوك العدوانى الذى يسرع من عملية اضمحلال الوجود البشرى من على كوكب

الأرض. . قد يتبقى أعداد قليلة من الجنس البشرى لتبدأ دورة جديدة، ويبدأ ظهور السيد والعبد مرة ثانية ، فأى شيء وارد فى فكر الإنسان قابل لنظرية الاحتمالات ، قد تتضائل نسبة الاحتمال ، ولكنه احتمال قائم.

لم تعهد دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا وبعض الدول الأسيوية ودول الخليج برفاهية مثل التى تعيشها الآن ومنذ ثلاثة عقود مضت . . ومع ذلك فإن رفاهية التكنولوجيا الحديثة والارتفاع المستمر فى مستوى معيشة الفرد لم تمنع الميول العدوانية لدى الأفراد. . فالارتفاع العام فى الدخل القومى لم يلغ الفوارق بين الفئات أو الطبقات الاجتماعية. . فإحباط النظرة التباينية والمقارنة مع الآخرين مازال مستمراً، ودافعاً لمزيد من العنف والسلوك العدوانى. . بل ان مجتمع الرفاهية أدى إلى وجود نسبة كبيرة من الغازات الحابسة للحرارة مثل ثانى أكسيد الكربون وأكسيد النيتروچين والميثان وبخار الماء، والتى تتميز بامتصاص الحرارة الصادرة من سطح الأرض والاحتفاظ بها لفترات طويلة ثم تبثها مرة ثانية إلى الأرض التى أصبحت مثل الصوبة الحرارية (Green House) ، فمجتمعات الرفاهية قضت على مساحة كبيرة من الغابات الخضراء التى كانت تمتص ثانى أكسيد الكربون ، ولوثت الأنهار والبحار بالإضافة إلى تلوث الهواء.

فشلت سياسة انصهار القوميات والأديان فى بوتقة الوطن الواحد، فأى أقلية دينية فى بلد ما تنادى بالتكاتف والتجمع، وكل قومية مشتتة فى بلاد مختلفة مثل القومية الكردية تتطلع إلى الاتحاد، فكل الدلائل تشير إلى أن القرن العشرين كان قرن القوميات وعودة الأصولية الدينية خصوصاً بعد سقوط النظام الماركسى فى دول أوروبا الشرقية وتزايد النزاعات الدينية الإسلامية واليهودية فى دول الشرق الأوسط. . إذا ساد هذا الاتجاه العام مستقبلاً فسوف تتفتت دولا كثيرة ، قد يقوم نزاع داخلى بين القوميات أو الأديان المنفصلة وبين الوطن الأم، ولكن ستتيقن جميع الأطراف أن السلام والتعاون هما المصلحة المشتركة. . هل سيحدث تفتت آخر فى القومية الواحدة أو الدين الواحد فى المستقبل غير القريب . . احتمال وارد لبدء دورة جديدة من إنشاء نظام جديد فى صورة دول صغيرة تأخذ شكل القبيلة الكبيرة أو

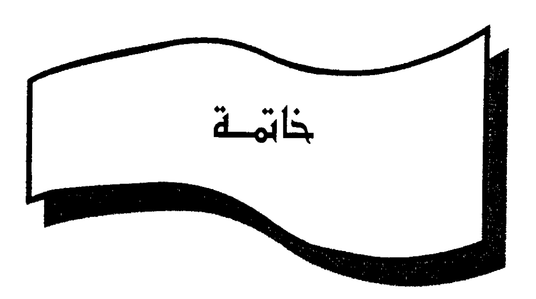
الإمارة الصغيرة ولكن تحت حكم ديمقراطى ليبرالى لا يعترف بمركزية الدولة أو التخطيط الموجه.

ماذا ستجىء به الهندسة الوراثية إذا تغلب أنصار تعديل الصفات الوراثية عن طريق الجينات ، هل سيتحول الإنسان إلى إنسان نيتشه الأعظم (السوبرمان) ، أم سينقسم البشر إلى سادة تحكم وتستمتع ، وعبيد ذكور وإناث لخدمة وتسلية السيد الجديد، حتى يصبح المستقبل واقع سيظل الإنسان كما وصفه الفيلسوف شوبنهاور: «ذلك الحيوان المأساوى الذى ليس لديه من الغريزة ما يمكنه من التصرف بأمان، وليس لديه بعد من العقل ما يمكنه من تحمل غرائزه، والإنسان الكامل لا يتوقع وجوده إلا فى آفاق المستقبل البعيد، ويظل اليوم ذلك الكائن الناقص، الضائع بين الحيوانية والربانية، حبيس الغرائز العدوانية والتملكية التى ورثها عن أسلافه وضاعفها بسلاح معارفة».

استطاع الإنسان الحديث أن يتقى شر الطبيعة، بدرجة عالية بالنسبة إلى الماضى، وإذا اتحد الأفراد فى الأزمنة الغابرة وتعاونوا لصد خطر الطبيعة، فى وقت الخطر تنسى الضغينة والخلافات، استغل رجال السياسة هذا العرف فى طبيعة الإنسان باختلاق الأزمات والمخاطر الوهمية لكى يلهوا شعوبهم ويحولوا أنظارهم عن التنافس السياسى والمناداة بشعارات ضد القائمين بالحكم.. والآن وبعد أن تغلب الإنسان على تمرد الطبيعة، ورفع شعار براق "عالم واحد لجميع البشر" كيف وأين سيفرغ الإنسان شحنته الانفعالية، بالطبع يوجد إنسان آخر إن لم يستطع أن يستعبده بعد إلغاء الرق ، فعلى الأقل يستطيع أن يتغلب عليه، ويرتقى عنه بالمنافسة الشريفة أو غير الشريفة، مجال الصراع واسع ومتنوع ولن ينتهى ، وبعد أن انتهى النظام القبلى أو الاجتماعى الذى كان يضمن التكافل لجميع أعضاء القبيلة أو الجماعة، وأصبح الإنسان وحيداً منعزلاً مع أسرته أو حتى وحيداً داخل أسرته، فإن الصراع أصبح مؤلماً نفسياً بعد ما كان الإيلام بدنى ومادى، حاول الإنسان الحديث أن ينتمى إلى أحزاب سياسية وتجمعات ثقافية وفنية وأندية رياضية واجتماعية، ولكن رتم

الحياة الحديثة، والهموم الشخصية للفرد حد من نظام التضامن والتآذر والإخاء والترابط الاجتماعى، أصبح الإنسان حراً ولكن وحيداً.

قال وليام جيمس: « إن من أشد أنواع الأذى أن تبقى وحيداً، فالحبس الانفرادى من أمقت أنواع التعذيب التى ينبغى أن تنهى عنها الإنسانية الحديثة». . إن معيشة الفرد فى مجتمع هى غريزة فطرية بالإضافة إلى الفوائد المادية الأخرى من تعاون، وتقسيم عمل، وتطوير أنظمة من أجل الرقى، وتوفير جهد ووقت. طالما تثير الإنسان غرائزه، وتسيره موروثاته، ويجذبه مجتمع مكون من آخرين بجانب فرديته، فسيظل قائما نظام السيد والعبد، والسيد العبد بصور مختلفة، وتسميات منقحة، تواكب التطور الطبيعى فى مسار التاريخ.


خاتمة

خاتمة

يختلف الإنسان عن الكائنات الأخرى بتباين ملموس فى أنماط سلوكه وفى شكله العام بالرغم من التشابه الفسيولوجى، فاختلف لون البشرة من الأبيض المائل للحمرة إلى الأسود الداكن الأبنوسى مع جميع درجات اللون التى تقع بينهما، واختلف شكل العينين ولونهما، واختلف طول الإنسان وحجمه ولغته. . كما تنوعت العادات والتقاليد والأذواق فى المأكل والمسكن أى الثقافة بصفة عامة، فحتى مع بداية الألفية الثالثة ما زال يوجد من البدو من يعيش فى خيام ومازال من الأسكيمو من يعيش فى منازل ثلجية ، أنف البعض من أكل الكلاب والخيول وتلذذ آخرون من مذاقها، غطى البعض جميع أجزاء جسمه بينما عاش آخرون فى مستعمرات عراة، زينة النساء وحليها تغيرت مع الزمان ومع المكان ، فكل شعب له ثقافة خاصة فى زينته تتغير على مر العصور، فتشبه بعض الرجال بالنساء، وقلدت بعض النساء الرجال فى ملبسهم وتصرفاتهم. . اختلف تأثير الغرائز الفطرية والعواطف المركبة من إنسان لآخر . . فاشتدت بعضها فى إنسان وخفت البعض فى إنسان آخر. . إذ كان سلوك الإنسان دالة فى غرائز موروثة وتراكم تجارب مكتسبة من البيئة، فالسلوك أيضاً تباين باختلاف التجارب التى يكتسبها الإنسان على مر رحلته الحياتية، وسط كل هذا التضاد والتباين فى نظام كونى قائم على الاختلاف والصراع، وجد إنسان ذو طبيعة سيادية سمى بالسيد، ووجد أيضاً إنسان له طبيعة العبد، قام صراع أبدى بين الإنسان وقرينه ينتهى غالباً بموت طرف أو طرفى النزاع أو تسيد طرف على الآخر. . استسلم العبد غالباً وتمرد أحياناً، وانتهى المطاف بإلغاء الرق قانوناً وممارسة، ولكن مع وجود كل من طبيعة السيد وطبيعة العبد داخل الإنسان وجد الإنسان الحديث: السيد العبد.

ارتبط نظام العبودية منذ العصور القديمة بالحضارة، ومن السخرية أن يرتبط التطور والرقى فى الزراعة والصناعة، وفى العلوم والفلسفة، وفى الفنون والقانون،

بأحط نظام بشرى ابتدعه فرد أو جماعة، لإخضاع فرد آخر، أو السيطرة على جماعة أخرى. . ما أغلى حرية الإنسان التى تستحق أن يزود عنها ويحميها، حتى إن أدى ذلك إلى فقد حياته . . بدون الحرية يصبح الإنسان ذليل وحقير، لا يستحق الشفقة، بل مزيد من المهانة والذل طالما ارتضى أن يستسلم ويعيش وضيعاً وذليلاً.

ماذا حدث لكل من السيد والعبد فى هذا العصر بعد الحروب الكثيرة والطويلة التى عانى منها الإنسان، أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية، وحروب الشرق الأوسط بين الدول العربية وإسرائيل، وصراع الدين الواحد بين العراق وإيران، وصراع أبناء العم بين الكويت والعراق، وحروب دول البلقان فى البوسنة وكوسوفو، وصراع إيدلوچيات رأسمالية غربية وشيوعية روسية صينية، وصراع المعدمين فى رواندا وزائير والصومال وأثيوبيا وآرتيريا وغيرها من الدول الأفريقية التى تعانى المجاعة والأمراض، واستبداد حكام طغاه فى أمريكا اللاتينية وآسيا، وأفريقيا والشرق الأوسط والأدنى، ماذا حدث للإنسان بعد إلغاء الرق وتحرر العبيد. . فى هذا العصر الحديث حدث تقارب شبه التقائى بين السيد والعبد، أو بمعنى آخر بين صفات وسمات السيد والعبد، قد يحتاج هذا المدخل إلى بعض الشرح والتفسير. .
لم يعد هناك عبيد بالمعنى القديم وأصبح جميع الناس حتى فى الدول التى يحكمها طغاة مستبدين، بحكم القانون أحراراً، فإذا حدث صدام وصراع أياً كان نوعه (جسدى/ قانونى / سياسى/ حرب نفسية / . . .» بين اثنين فبالطبع سوف ينتصر الأقوى ، ولكن فلنفرض أن الاثنين متساويين فى القوة تقريباً، فإذا تمسك أى من المتصارعين بأخلاق وسمات الأسياد من شرف المنازلة والتعالى عن دسائس الصراع، فسوف يهزم فى حالة ميل الطرف الآخر إلى أخلاق العبيد المتسمة بالخسة والنذالة والأساليب الغير شريفة والغير أخلاقية، وعلى ذلك فسوف ينتهى السيد الارستقراطى التقليدى، ذو القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، أو بالأحرى نستطيع القول أنه انتهى ، فالسائد الآن هو الإنسان الحر الذى لديه صفات العبيد، ومن جهة أخرى فإن الإنسان بطبعه يميل إلى التفاخر والتباهى ، فقد ينسب الوضيع نفسه إلى الجد العاشر إذا وجد فيه رمق من المكانة والرفعة، وعليه فالإنسان المتسم بصفات

العبيد قد يتحلى ببعض مكارم الأخلاق من كرم وشرف ونزاهه حتى ولو كان هذا تظاهراً حتى ينسب نفسه إلى الأسياد.

وفى الخلاصة نستطيع القول أنه سيحدث التقارب التقائى أو شبه التقائى (Convergence) بين السيد والعبد أو بين ذوى صفات الأسياد وذوى صفات العبيد ليتكون إنسان جديد، لا هو سيد ولا هو عبد والذى نسميه فى هذا الكتاب بالسيد العبد، هذا الإنسان الذى يجمع بين كل من صفات السيد وصفات العبد.

نتمنى أن يسير النظام البشرى إلى الأفضل للإنسان بعيدا عن التطرف الذى يشعل ناراً من الصعب إخمادها بدون خسائر فادحة لجميع الأطراف، المنتصر والمنهزم، أما التغلب على ملل رتابة الحياة بخلق مشاكل لا تستحق أن تخلق فوسائل الترفيه البشرية كثيرة، والتكنولوجيا الحديثة فى عالم النقل والاتصالات تمكن الإنسان من السفر والترحال.. ومن مشاهدة ما قد لا يستطيع أن يتلمسه أو يعيش فيه، عن طريق شبكات اتصالات وأقمار صناعية، وقنوات تليفزيونية تغطى جميع أنحاء كوكب الأرض.

وفى هذا المجال نورد الفقرة التالية من كتاب "نهاية التاريخ" لفوكوياما مع تعديل بسيط بدون الإخلال بالمعنى: « قد أبى العبد فى مستهل التاريخ أن يخاطر بحياته فى معركة دامية، حيث أنه كان جباناً بالغريزة، أما خاتم البشر فى نهاية التاريخ، فيعلم جيدا أنه من العبث المخاطرة بحياته من أجل قضية حيث أنه يدرك أن التاريخ ملىء بالمعارك التى لم يكن ثمة مبرر لها، اقتتل فيها الناس حول ما الذى كان ينبغى على الإنسان أن يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بغير دين سماوى، غربياً أو شرقياً، أبيض أو أسود، وقد أثبت التاريخ اللاحق أن الولاءات التى دفعت الإنسان إلى القيام بأعمال رهيبة ملؤها الشجاعة والتضحية هى مجرد تعصب أحمق».

ذهبت الفلسفات القديمة إلى أنه لكى تجرى مياه الأنهار من مكان إلى آخر فلابد من فرق فى المنسوب ، ولكى تتولد الطاقة الكهربية ويسرى التيار فلابد من فرق فى

الجهد، كذلك النظام البشرى فلكى يتطور ويتقدم فلابد من فروق فى الأفراد وفى الطبقات، ليتولد الألم الناتج من النظرة التفاضلية، وحافز المقارنة التى تدفع الإنسان إلى أعلى. . أما السياسات والثقافات الحديثة فتقوم بترويض حمية النعرة الأرستقراطية الكائنة فى أقصى خط السيد تطرفاً، عن طريق نشر فلسفة العولمة والفكر الاقتصادى الحر الذى تتبناه الحضارة الغربية الحديثة لترسخ كثقافة عامة فى فكر وعقل الإنسان الحديث. . إن الاتجاه السائد الآن هو فكر التقييم المادى الغالب على التقييم الإنسانى، وإذا تغلبت المادة على إنسانية الإنسان سيتحول البشر جميعاً إلى عبيد للسيد الجديد (المادة).

حتى لا يسير البشر وراء وهم الحرية، عملا بالقول الشائع "إن الحرية حق طبيعى يملكه الإنسان بحكم الطبيعة"، فواقعياً ومنطقياً يجب إضافة : "إذا عاش وحده" إلى نهاية الجملة فالإنسان حر إذا كان وحيداً حيث لا معنى للحرية، والإنسان مقيداً إذا ظهر فى النظام طرف آخر، طالما أن حرية فرد تقيد حرية آخر إذا وجدت علاقة ما بينهما ، أساسها المنفعة المتبادلة، فالنظام البشرى قائم على التملك والتعصب وعلى الأنانية الفردية، وعلى حب البقاء وحب الانتماء إلى مجتمع يستمد منه قوته ويبدد فيه ملله. . لا يمكن لهذا النظام أن يفرز حرية كاملة. إن النظام البشرى يحركه طبيعة خارجة عن قدرات البشر إلى حد كبير، وأيضاً تفاعل بين أفراده، لا يملك الفرد فى هذا النظام أن يمتلك الطبيعة أو يغير ظواهرها وقوانينها، أو يمتلك الآخر امتلاكاً كاملاً طالما الفرد يملك إنهاء حياته بالانتحار، ومنع الطرف الآخر من التمتع بلذة الانتصار والتملك. . نظام معقد جداً فى تفاصيل الميكانيزم الخاص به ، سهل جداً فى شمولية فلسفته إذا نظرنا إليه بمنظار مجرد على أنه نظام قائم على تضاد وتباين، وتفاعل بين عناصر لانهائية العدد، تسير طبقاً لمنظومة متكاملة يتبع منها نظاماً البشرى الذى نجهد فيه أنفسنا لتحليل مكوناته وتفاعلاته وفهم القليل من أساسياته وتوقع نهايته.

وفى النهاية يتبقى سؤال أخير : هل الإنسان الذى تحرر من نير عبودية إنسان آخر هو فعلاً حر الإرادة ؟! أم خلق الإنسان ليكون عبداً لقدره؟


قائمة المراجع

قائمة المراجـع

١ - "بعيداً عن اليسار واليمين - مستقبل السياسات الراديكالية" - انطونى جيدنز- ترجمة شوقى جلال - عالم المعرفة - نوفمبر ٢٠٠٢ .

٢ - "الجذور التاريخية للصراع العربى الإسرائيلى" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١ .

٣ - "الكون - بداية .. نهاية" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

٤ - "قدر الإنسان بين الصراع والسعادة" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر- ٢٠٠١ .

٥ - "المتلاعبون بالعقول - " هربرت شيللر - ترجمة عبدالسلام رضوان - عالم المعرفة - مارس ١٩٩٩ .

٦ - " وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر" - لطفى أحمد نصار - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٩٩ .

٧ - " صدام الحضارات " - صامويل هنتنجتون - ترجمة طلعت الشايب - سطور- ١٩٩٨ .

٨ - "فخ العولمة" - هانس بيتر مارتين وهارالد شومان - ترجمة عدنان عباس على- عالم المعرفة - اكتوبر ١٩٩٨ .

٩ - "الهندسة الوراثية - الأمل والألم" - عبدالباسط الجمل - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٨ .

١٠- "عالم يفيض بسكانه" - روى كالن - ترجمة ليلى الجبالى - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٦ .

١١- "الحرية" - جون ستيورات ميل - ترجمة طه السباعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦ .

١٢- " الصراع على القمة - مستقبل المنافسة الاقتصادية بين أمريكا واليابان" - لستر ثارو - ترجمة أحمد فؤاد بليغ - عالم المعرفة - ديسمبر ١٩٩٥ .

١٣- "جيران فى عالم واحد - نص تقرير إدارة شئون المجتمع العالمى" - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٥ .

١٤- "الفكر الشرقى القديم" - جون كولر - ترجمة كامل حسين - عالم المعرفة - يوليو ١٩٩٥ .

١٥- "أقليات فى خطر ٢٣٠" - تيد روبرت جار - ترجمة مجدى عبدالحكيم وسامية الشامى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

١٦- "المماليك فى مصر" - أنور زقلمة - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

١٧- "المقاومة بالحيلة - كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم" - جيمس سكوت - ترجمة إبراهيم العريس وميخائيل خورى - دار الساقى - بيروت ١٩٩٥ .

١٨- "عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة " - جان مارى بيلت - ترجمة السيد محمد نجاتى - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٤ .

١٩- "فن التفاوض" - ويليام أورى - ترجمة د. نيفين غراب - الدار الدولية للنشر والتوزيع - ١٩٩٤ .

٢٠- "الطاغية" - د. إمام عبدالفتاح إمام - عالم المعرفة - مارس ١٩٩٤ .

٢١- "العبودية" - موريس لانجليه - ترجمة إلياس مرقص - دار الحصاد للنشر- ١٩٩٤ .

٢٢- "معالم تاريخ الإنسانية" - هـ.ج.ولز- ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .

٢٣- "مقدمة فى علم التفاوض الاجتماعى والسياسى" - د. حسن محمد وجيه - عالم المعرفة - أكتوبر ١٩٩٤ .

٢٤- "مصطلحات فكرية" - سامى خشبة - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٤ .

٢٥- "إنهم يصنعون البشر" - فانس بكارد - ترجمة زينات الصباغ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .

٢٦- "نهاية التاريخ وخاتم البشر"- فرانسيس فوكوياما - ترجمة حسين أحمد أمين- مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣ .

٢٧- "تاريخ الحضارات العام" - أندريه إيمار وآخرون - ترجمة فريد داغر وآخرون- منشورات عويدات - بيروت ١٩٩٣ .

٢٨- "التحليل السياسى الحديث" - روبرت أ. دال - ترجمة د. علاء أبو زيد - مركز الإهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣ .

٢٩- "قصة الحضارة" - ول ايربل ديورانت - ترجمة د. زكى نجيب محفوظ - دار الجيل - ١٩٩٢ .

٣٠- "مقال فى العبودية المختارة" - اتين دى لابويسيه - ترجمة د. مصطفى صفوان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢ .

٣١ - "وصف مصر" - علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - دار الشايب للنشر - ١٩٩٢ .

٣٢- "غسيل المخ وتحطيم العقائد" - عبدالحكيم العفيفى - الزهراء للإعلام العربى- ١٩٩٢ .

٣٣- "سياسة وأقليات فى الشرق الأدنى - الأسباب المؤدية للانفجار" - آنى شابرى ولورانت شابرى - ترجمة ذوقان قرقوط - مكتبة مدبولى - ١٩٩١ .

٣٤- "الأمير" - نيقولا ميكافيللى - ترجمة على الجوهرى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٠ .

٣٥- "سيكولوچية الخوف" - يوسف ميخائيل سعد - نهضة مصر - ١٩٩٠ .

٣٦-"موجز تاريخ العالم" - أ. مانفرد - ترجمة محمد عيتانى - دار الفارابى - ١٩٨٩ .

٣٧- "الدافعية والانفعال" - ادوارد موراى - ترجمة أحمد عبدالعزيز سلامة - دار الشروق - ١٩٨٨ .

٣٨- "استخدام القوة فى القانون الدولى" - علاء الدين حسين مكى - دار الشئون الثقافية العامة - ١٩٨٨ .

٣٩- "تاريخ الحضارات العام" - ادوارد بروى - ترجمة يوسف داغر وفريد داغر- منشورات عويدات - بيروت وباريس - ١٩٨٦ .

٤٠- "الغرب والعالم - تاريخ الحضارة من خلال موضوعات" - كافين رايلى - ترجمة د. عبدالوهاب المسيرى و د. هدى حجازى - عالم المعرفة - يناير ١٩٨٦ .

٤١- الأنثروبولوچيا - أسس نظرية وتطبيقات عملية " - د. محمد الجوهرى - دار المعارف - ١٩٨٣ .

٤٢- "علم النفس الفسيولوچى" - د. أحمد عكاشة - دار المعارف - ١٩٨٢ .

٤٣- "علم الاجتماع" - د. عبدالحميد لطفى - دار المعاف - ١٩٨٢ .

٤٤- "قوة الإرادة" - يوسف ميخائيل أسعد - مكتب غريب - ١٩٨٢ .

٤٥- "علم النفس الفردى" دكتور اسحق رمزى - دار المعارف - ١٩٨١ .

٤٦- "المعجم الوجيز" - مجمع اللغة العربية - دار التحرير للطبع والنشر - ١٩٨٠ .

٤٧- "شخصية مصر" - د. جمال حمدان - عالم الكتب - ١٩٨٠ .

٤٨- "التكيف النفسى" - د. مصطفى فهمى - مكتبة مصر - ١٩٧٨ .

٤٩- "القيادة وديناميكية القادة" - جو بوهلن وجورج بيل ونيل رودابلو - ترجمة د. محمد العربيان ، ود. إبراهيم شهاب - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٩ .

٥٠- "الحرب النفسية - معركة الكلمة والمعتقد" - صلاح نصر - دار القاهرة للطباعة والنشر - ١٩٦٦ .

٥١- "تطور الفكر السياسى" - جورج سباين - ترجمة حسن جلال العروسى - دار المعارف - ١٩٦٤ .

٥٢ - "الدوافع النفسية" - د. مصطفى فهمى - مكتبة مصر - ١٩٦٠ .

٥٣- "مشكلات الحياة الانفعالية - من الميلاد إلى ماقبل المراهقة"- سبرجيون أنجلش وجيرالدبيرسون - ترجمة فاروق عبدالقادر وآخرون - دار الثقافة الإنسانية للنشر - ١٩٥٨ .

٥٤ - "نيتشه" - عبدالرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦ .

رقــم الايــداع :
٢٠٠٣ / ١٤٣٣٨
الترقيم الدولى :
977 - 294 - 278- X

مطابع آمــون
٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظة
لاظوغلى - القـاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ _ ٧٩٤٤٣٥٦